دُنْدُن مِسْكِين

شاب يطارد الشبهات...

وتطارده الفطرة.



عبد الحكيم لايف

دُنْدُن مسكين

رواية

عبد الحكيم

كلمة المؤلف

«هذه رواية واقعية تستلهم أسئلةً وشبهاتٍ قد تعترض طريق كثير من الشباب. قصدها فتح باب الحوار بأدب، والدعوة إلى العلم والقراءة، والرجوع إلى أهل الاختصاص قبل إطلاق الأحكام.»

بيان مقصد

«عزيزي القارئ، أقدّم إليك هذا الكتاب ابتغاءَ وجه الله تعالى، لا طلبًا لربحٍ ولا سعيًا إلى شهرة. كُتب لأن أسئلة الشكّ قد تكون بحثًا عن معنى، لا عداءً بالضرورة. ستجد فيه سردًا يدعوك إلى أن يُقابَل السؤال بالمعرفة والهدوء، وأن يُصان للحوار احترامه حين تشتدّ الشبهات.»

الإهداء

«إلى كلِّ نفسٍ عصفت بها الشبهاتُ في زمنٍ يضجّ بالأصوات، وإلى كلِّ قلبٍ تاه بين كثرة الآراء وتناقضها... إلى من خاف من أسئلته، ثم اكتشف أن السؤال الصادق قد يكون طريقًا إلى الفهم والطمأنينة.

وإلى «دُندُن»—رمزٍ من أثقلته الشبهات، فظنّ أنه أمسك بالحقيقة قبل أن يمتلك أدواتها. هذا الكتاب لمن يبحث بصدقٍ عن معنى، ويختار الحوار الهادئ حين تشتدّ الأسئلة.»

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لم يبدأ الاضطراب بالسؤال... بل بدأ بالرفقة. ففي زمنٍ تكاثرت فيه الأصوات وتشابكت المسارات، ظهرت فئةٌ درست وتعلّمت، لكنها جلست طويلًا في مجالس تُدار فيها الشكوك بوصفها معرفة، وتُقدَّم فيها الاعتراضات كأنها بدائل مكتملة. ومع الوقت، صار ما تعلّمته هذه الفئة—بدل أن يمنحها معيارًا أدق—مادةً تخلط بها بين الفكرة والدليل، وبين الانطباع والبرهان.

وفي الجهة الأخرى، كانت فئةٌ لم تتلقَّ أدوات الفهم، ولم تلمس عمق ما يُقال، لكنها تبعت الأولى بلا تمييز. لا لأن الحجج أقنعت عقلها، بل لأن بعض الكلام جاء مناسبًا لميلٍ داخليّ: يخفّف ثقل الالتزام، ويمنح تفسيرًا سريعًا لما هو معقّد. فكان الانجراف أسهل من التريّث، وكان تكرار الصوت أقوى من بناء المعنى.

وبين هذين المسارين—تعليمٌ غير مُحكَم الاتجاه، وتلقٍّ بلا أدوات—بدأ نموذجٌ ثالث يتشكّل. ليس من أهل الفهم الراسخ، ولا من البسطاء الذين يجهلون ويصرّحون بجهلهم؛ بل شخصيةٌ تنمو في الفراغ: تجمع نصف فكرة من هنا،

ونصف شبهة من هناك، وقلبًا يتأرجح بين حاجةٍ إلى اليقين ورغبةٍ في التخلص من الأسئلة التي تُكلّف.

ومع تكرار الملامح وتشابه الطريق، استقرّ لهذا النموذج اسمٌ واحد: **دُنْدُن.**

مَن هو دُنْدُن؟

لم يكن «دُنْدُن» اسمه الحقيقي. لم يكن اسمًا لشخصٍ بعينه أصلًا، بل لقبًا صار مع الوقت اسمًا لنموذجٍ يتكرر. نموذجٌ لشابٍ يتكلم في قضايا كبيرة قبل أن يفهمها، ويظن أنه أدرك حقيقتها لمجرد أنه سمعها.

واسم «دُنْدُن» لم يأتِ عبثًا. فهو مستلهم من «الدندنة» في العربية، وهي ترديد كلامٍ غير واضح المعنى ولا مكتمل البناء. وتُستعمل في بعض اللهجات الأمازيغية كلمة «إزدندون» للدلالة على الشخص الذي يتكلم بكلامٍ غير مرتب ولا مبني على علم. ولهذا استُخدم هذا الاسم هنا لوصف من يتكلم دون فهمٍ راسخ، ويكرر دون تحقق.

ومن أبرز صفات «دُنْدُن» أنه يلتقط الشبهة بمجرد أن يسمع بها، ثم يسارع إلى نشرها قبل أن يفهمها. لا يسأل عن أصلها، ولا يبحث عن جوابها، ولا يدرك أنها—في كثيرٍ من الأحيان—شبهةٌ قديمة معروفة. لكنها، لأنها جديدة عليه، يظنها اكتشافًا، فيفرح بها، ويتكلم بها بثقة من يملك الحقيقة.

ولا يقف «دُنْدُن» عند نقل الشبهات فقط، بل يتجاوز ذلك إلى طريقةٍ في التعبير يفقد فيها التمييز بين السؤال والاحترام. ومع الوقت، قد ينزلق لسانه إلى ألفاظٍ جارحة، فيسيء الحديث عن أعظم المقدسات عند المؤمنين، أو

يذكرها بسخريةٍ أو سبّ، ظنًا منه أن ذلك تعبيرٌ عن تحررٍ فكري، بينما هو— في حقيقته—نتيجة فهمٍ لم يكتمل، ومنهجٍ لم يتأسس.

لهذا لم يكن «دُنْدُن» اسمًا لشخص، بل اسمًا لحالة: حالةٍ تتكلم قبل أن تفهم، وتردد قبل أن تتحقق، وتجرؤ قبل أن تتعلم، وتظن أنها بلغت الحقيقة... بينما لم تبدأ البحث بعد.

وفي الفصول القادمة، ستكتشف تحرّكات «دُنْدُن»، وتصرفاته، وكيف يلتقط الشبهات، ومن أين يتلقّاها، وكيف يثيرها بين الناس، وما الذي يدفعه إلى ذلك. وسترى أن «دُنْدُن» لم يكن باحثًا عن الحقيقة بقدر ما كان منساقًا وراء ما يوافق هواه.

وبعد أن تعرف «دُنْدُن»... لن تسأل من هو، بل ستعرفه حين تراه.

الفصل الثاني

جذور الضوء

البداية التي تقول إن النور حين يكون صادقًا...لا يعني أنه سيبقى بلا امتحان.



لم تكن طفولةُ دُنْدُن طفولةً عادية، ولا حياةً تُختصر في سطور قليلة. اخترتُ أن أجسّد «دُنْدُن» هنا في شخصيةٍ واحدة، لا بوصفها سيرةً تاريخية، بل بوصفها نافذةً تُقَرِّب القارئ من الداخل. وُلد في منطقةٍ يلتقي فيها الجبل بالبحر: هواءٌ نقيّ، وصباحٌ يبدأ برائحة الخبز، ونسيمٌ يسبق الشمس إلى الوجوه. مكانٌ بسيط، لكنه يترك في الطفل إحساسًا بأن العالم يمكن أن يكون واضحًا وهادئًا.

غير أن أجمل ما في حياته لم يكن المكان... بل البيت. بيتٌ تتكوّن فيه الطمأنينة من تفاصيل صغيرة أكثر مما تتكوّن من الشعارات. كانت الأم قلبًا رقيقًا، تنحني للصلاة في السَّحر، ودُنْدُن طفلٌ يجلس قربها يلمس إصبعها في التشهّد ويهمس: «ياما حنّو...ياما أينو». فتبتسم، وتطيل السجود قليلًا كي لا يختلّ توازنه على كتفها، ثم تضع يدها على رأسه كما لو أنها تُهدّئ الداخل قبل أن تُطمئن الجسد.

وكان الأب رجلًا هادئًا ثابتًا، يحمل همّ البيت بلا ضجيج، ويُربي بالفعل أكثر مما يُربي بالكلام. إذا قام للصلاة جلس الطفل بين يديه، يتسلّق ظهره وهو

ساجد، والأب لا يتعجل حركته حتى ينزل الصغير بسلام، ثم يُكمل الركعة بطمأنينةٍ لا تحتاج إلى تفسير.

حتى الجيران كانوا امتدادًا لهذه الروح. إذا خبزت الأم أو أعدّت طعامًا قالت لدُنْدُن: «يا بني... خذ هذا للجارة وبلّغ لها سلامي». فيخرج الصغير كأنه يحمل معنىً قبل أن يحمل طعامًا، ويعود بفرحٍ صافي لأنه أنجز مهمةً أكبر من عمره.

وكان للعيد فصلٌ خاص في ذاكرته: ثيابٌ جديدة تحت الوسادة، وحذاءٌ يلمّعه مرارًا قبل النوم، و(الحولي)—كبش الأضحية—يدور في الساحة، ودُنْدُن يصرخ للجيران بحماسٍ طفولي: «عندنا العيد! عندنا الحولي!». كانت ضحكته تملأ المكان كما يملأ الضوء الغرف عند الشروق.

وفي رمضان، كان البيت يتحرك على نسقٍ واحد: قرآنٌ يُتلى، ودعاءٌ يهمس به الناس أكثر مما يعلنونه، ورائحة (الحريرة)—حساء رمضان المعروف—تأتي من المطبخ في وقتها كل مساء. كانت الأم تُخبئ للصغير تمرةً لينهي يومه سعيدًا، وكان الأب إذا صام نصف النهار مسح على رأسه وقال بفخرٍ بسيط: «برافو ولدي... اليوم صمت بزاف» (أي كثيرًا).

كبر قليلًا، ودخل المدرسة الابتدائية وهو يحمل حقيبته الصغيرة ويمسك يد أبيه كأنها العالم كله. كان يسأل بعد كل مغرب بلهجته: «بابا... شحال بقى لرمضان؟ وشحال بقى للعيد الصغير والكبير؟» (أي: كم بقي). واقترب قلبه من الصلاة كما تقترب العصافير من الضوء: يرى أباه يتوضأ فيقلّده بحركاتٍ طفولية ويقول: «بابا... بغيت نصلي معاك».

وحين بلغ السابعة، هيّأه الأب للصلاة برفق. اشترى له قميصًا صغيرًا، وسجادةً هادئة اللون، وجزءًا من القرآن—لا المصحف كاملًا—وقال له: «كمّل هذا... ونجيب لك الجزء الثاني يا بني». وكانت الأم تفرح حين يقلّد الأذان، وتضحك حين يرتجف إصبعه في التشهّد، ثم تقول: «ربي يرضى عليك يا وليدي... صلاتك تزيدك نور».

وفي المسجد كان الأطفال يلتفّون حوله حين يقول بفخر: «أنا البارح صليت مع بابا... ونعرف الإقامة كاملة!».ومع الأيام بدأ صوته يخشن، وظهرت أول علامات البلوغ، وتبدّل داخله شيءٌ لم يفهمه بعد: ثِقلٌ جديد، ليس حزنًا ولا خوفًا، بل شعورٌ يشبه بابًا يُفتح على عالمٍ أوسع من طفولته. وهنا—

في هذا الحدّ الفاصل—بدأ الانتقال الصامت إلى المرحلة التي سيولد فيها السؤال، قبل أن يعرف إلى أين يمكن أن يأخذه.

الفصل الثالث

الشرارة الأولى

حين يبدأ الضوء بالانطفاء... ببطءٍ لا يُسمَع.



مرّت السنوات التالية على «دُنْدُن» في هدوءٍ يبدو—لمن يراه من الخارج— كأنه مستقرّ. لم تكن أيامًا قليلة تُقاس بالشهور، بل زمنًا يتكوّن ببطء: تفاصيل تتكرر، ودفءٌ يتسرّب إلى النفس دون أن يطلب اعترافًا. في ذلك البيت الذي لا يرفع شعارات كثيرة، كانت الأخلاق تُتعلَّم بالمخالطة، وكانت الطمأنينة تُصنع من حضور الأم، ومن صمت الأب، ومن جيرانٍ يوسّعون معنى العائلة.

كبر «دُنْدُن» إذن وهو يحمل في داخله مخزونًا من الرحمة والسكينة، مخزونًا لا يختفي سريعًا حتى حين تبدأ التحولات. غير أن أجمل ما في تلك السنوات—كما يحدث غالبًا—أنه لا يُرى كاملًا إلا بعد أن يبتعد. فالأيام التي تبدو عاديةً في وقتها، هي في الغالب أجمل ما لا يعود حين يكبر الإنسان.

ومن هذا الامتداد الهادئ... بدأت تتقدّم مرحلة جديدة: مدرسةٌ أكثر اتساعًا، صحبةٌ أوسع، وأسئلةٌ تُولد أحيانًا من كلمةٍ عابرة، لا من رغبةٍ في الصدام.

لم تأتِ المرحلة التالية دفعةً واحدة. مرّت سنواتٌ امتدّت على مهل: انتقالٌ من الابتدائي إلى الإعدادي ثم إلى الثانوية، ونموٌّ يبدو في ظاهره طبيعيًّا؛ صوتٌ يخشن، وخطواتٌ تثبت، وأحلامٌ تتّسع. كانت حياةً كاملة لا تُختصر في خبرٍ واحد، لكنها—كما يحدث غالبًا—لا تُرى قيمتها كاملةً إلا حين يبتعد الإنسان عنها قليلًا.

ومع ذلك ظلّ في داخل «دُنْدُن» أثرٌ واضح من البيت الأول: سكينةٌ تمنحه معنى بسيطًا للعالم، وتُخفّف قسوة الأسئلة قبل أن تولد.

ولهذا اخترتُ أن أُجسّد هذه القصة في شخصية واحدة، لا بوصفها سيرةً تاريخية، بل بوصفها طريقًا لشرح التحوّل من الداخل: كيف يقترب المرء من المعنى، ثم يتردد عند أطرافه، وكيف تُبدّل الرفقة زاوية النظر قبل أن تُبدّل القناعة.

في الإعدادية كانت حياته قريبةً من البيت. يلعب مع أبناء الجيران، ويعود قبل المغرب، ويجلس قرب أمّه وأبيه كما يفعل كثير من أبناء البيوت الهادئة.

وكان والداه يراقبان رفقاءه بحذرٍ رفيق، لا خوفًا من العالم، بل معرفةً بأن الرفقة تُعيد تشكيل اللغة قبل أن تُعيد تشكيل الأفكار.

لكن مع دخول الثانوية بدأت الدائرة تتسع: وجوهٌ جديدة، مزاجٌ مختلف، وحديثٌ لا يشبه الأيام الأولى. وفي هذه البيئة ظهر شابٌّ لافت: نبرةٌ ساخرة، وحاجةٌ دائمة إلى أن يبدو "الأفهم". لم تكن أسئلته تطلب الفهم بقدر ما تختبر أثرها في الآخرين. وكان ذلك—في حياة «دُنْدُن»—أول تماسّ مباشر مع الشك بوصفه أداة تأثير.

لم يكن ذلك السؤال أوّل ما سمعه «دُنْدُن» من هذا النوع. فمع مرور الأشهر، لم يعد الأمر سؤالًا واحدًا يُسمع وينتهي، بل صار جوًّا كاملًا يحيط به.

في أطراف الساحة، وعلى حوافّ الأحاديث، كانت تتكرر كلمات عن أصل الإنسان، وعن فكرة أن لكل شيء سببًا، وعن السؤال الذي يأتي بعد كل سبب: من أين يبدأ؟ لم تكن تلك النقاشات عميقة ولا منهجية، لكنها كانت كافية لتفتح في داخله بابًا لم يطرقه من قبل. لم يكن يشارك فيها، لكنه بدأ يشعر أن بعض الأسئلة لا تنتهي حين ينتهي الكلام… بل تبدأ بعده.لم يكن «دُنْدُن» يجيب، لكنه لم يعد يسمع كما كان يسمع من قبل؛ صار السؤال يبقى

معه بعد أن ينتهي الكلام حتى جاء ذلك اليوم في استراحة المدرسة القصيرة.

لم يكن المشهد مختلفًا في ظاهره، لكن شيئًا في نبرة الشاب هذه المرة كان أكثر قصدًا، كأنه لا يلقي سؤالًا عابرًا... بل يضع بذرةً ينتظر أن تبقى. ثم قال بصوتٍ هادئٍ متعمّد: «سأسألكم سؤالًا واحدًا... إن كنّا نؤمن أن الله خلقنا، فَمَن خلق الله؟»

ساد صمتٌ قصير. لم يكن السؤال جديدًا في ذاته، لكن طريقة طرحه كانت مختلفة: كأنها تُلقي لغزًا ثم تنتظر اضطراب الوجوه. حاول أحدهم أن يجيب بهدوء:

«الله خالقٌ غير مخلوق... الخالق لا يسبقه خالق.»

ابتسم الشاب ابتسامةً متعالية، وقال بلهجةٍ توحي بأن الآخرين يكررون ما اعتادوه:

«أنتم تردّدون ما تربّيتم عليه... وتسمّونه إيمانًا.»

ثم التفت إلى «دُنْدُن» مباشرة:

«وأنت... هل رأيت الله؟ هل سمعتَه؟ أم أنك تحفظ ما لقّنوك؟»

اضطرب «دُنْدُن». لم يكن من أهل الجدل، ولا يملك بعدُ أدوات التمييز بين السؤال الذي يطلب فهمًا، والسؤال الذي يصنع ارتباكًا. قال بتردد:

«الله لا يُرى... هكذا تعلّمنا.»

قال الشاب، كأنه يقدّم "نصيحة" لا طعنًا:

«بالضبط... تعلّمتم. لكن الذي يفكّر لا يكتفي بما يتلقّاه. ابحثوا بأنفسكم... واسمعوا من يتكلم بالمنطق.»

ثم ألمح إلى أسماءٍ ومقاطع يعرفها من يعرف طرق الشبهات، وأضاف:

«ستجدون أشياء تفتح أعينكم على ما لم يخبركم به أحد.»

كانت تلك الجملة—لا السؤال وحده—هي الشرارة الأولى في داخل «دُنْدُن». لم يبحث تلك الليلة، ولا التي بعدها، لكن الفكرة بقيت. تكبر ببطء، كما تكبر شرارةٌ صغيرة في ورقٍ جاف.

بدأ «دُنْدُن» يبتعد عن دفء البيت من غير إعلان. صار يسهر أكثر، تحمر عيناه، يبهت صوته، ويتأخر نومه. ظن الأب أن الأمر "عين" (حسد)، وظنت الأم أنه إرهاق دراسة... ولم يعرفا أن الذي يثقل داخله لم يكن مرضًا بقدر ما كان فكرةً بدأت تطلب مكانًا.

وفي يومٍ سأله الأب:

«يا بني... هل صلّيت العصر؟»

فأجاب «دُنْدُن» بفتور:

«لا... ما عنديش وضوء» (أي: لا أملك وضوءًا الآن).

قال الأب بلطفٍ وحزمٍ معًا:

«دقيقتان يا بني... قم فتوضّأ وصلِّ.»

فقال «دُنْدُن»:

«سأصلّي بعد قليل.»

لكن "بعد قليل" كانت بداية عادةٍ جديدة. جلس، فتح الهاتف، وضع السماعات، وبدأت الأصوات نفسها التي سمعها في المدرسة تتكرر: سخرية، تشكيك، وجُمَل تُلقى بلا مسؤولية. وكانت تُقنع المراهق بأنها "جرأة"، وبأن الإيمان مجرد "عادة"، وبأن الصلاة ترديدٌ لا معنى له.

وبدأ الضوء يخفت...

لا بضجيجٍ ولا بصراخ،

بل كما تنخفض حرارة الجمر حين تمرّ عليه ريحٌ باردة.

وفي ليلةٍ أخرى وقف «دُنْدُن» خلف باب غرفته يسمع صلاة أبويه. ذلك الصوت الذي كان يسكن قلبه وهو طفل ويمنحه أمانًا بسيطًا... لم يعد يفعل الشيء نفسه. لم يتغير الأب، ولا الأم، ولا الصلاة، ولا البيت؛ الذي تغيّر كان موضع نظره إلى الأشياء. فالسؤال حين يفقد هدوءَه لا يمنح رؤيةً أوسع بالضرورة، لكنه قد يبدّل زاوية النظر، ويجعل المألوف ثقيلًا على القلب.

ومن هنا... من كلمةٍ قيلت في استراحة، ومن سؤالٍ أُلقي بلا مسؤولية، بدأ «دُنْدُن» يصير على عتبة تحوّلٍ جديد. ليس سيّئًا، ولا شريرًا، ولا صاحب موقفٍ مكتمل... بل حائرًا. خرج من الطفولة ودخل عالمًا لا يعرف حدوده، ولا يعرف أين يقف داخله.

وهكذا بدأ الضوء ينطفئ... ببطءٍ لا يُسمَع، وبطريقةٍ لا تُشبه العودة السهلة.

وفي تلك الليلة، لم يعد البيت هو البيت نفسه في نظره، رغم أن شيئًا فيه لم يتبدّل. وقف «دُنْدُن» خلف باب غرفته. لم يفتحه، ولم يرجع إلى سريره. فقط وقف.

كان يسمع حركة أبيه في الممر، وصوت أمّه الخافت، ونداءً بسيطًا للصلاة لا يحمل جدلًا ولا ضغطًا. ثم جاء صوت الأب، قريبًا هذه المرة، هادئًا كما اعتاده:

«يا بني... أنت بخير؟»

تجمّد لحظة. لم يكن السؤال عن التعب وحده، بل عن المسافة التي بدأت تتسع بينه وبينهم. نظر إلى مقبض الباب كأنه يرى معنى جديدًا: أن الخروج ليس مجرد خطوة، وأن البقاء ليس مجرد صمت.

داخلَه تردّدٌ صريح، لأول مرة بهذا الوضوح:

هل أفتح الباب وأخرج لأصلّي معهم... وأسمح للطمأنينة أن تعود؟

أم أخرج لأجادل... لأثبت لنفسي أنني "أفهم"؟

أم أبقى هنا... وأدع كل شيء يتأجل؟

ظل واقفًا. والباب—في تلك اللحظة—لم يعد خشبًا يفصل غرفةً عن ممر... بل عتبةً تفصل طريقين.

الفصل الرابع

ما وراء الباب

حين يبدأ البيتُ يسمعُ الصمت... ولا يفهمه



كان الضوء ينطفئ ببطء... كما تخفت جمرة صغيرة لا يسمعها أحد. ومن خلف السكينة التي عاش عليها دُنْدُن في طفولته بدأت تتشكل طبقةٌ رقيقة من الضباب، ضبابٌ لا يراه الأب حين ينظر إلى ابنه، ولا تلمسه الأم حين تمسح على رأسه. كان كل شيء يبدو طبيعيًا من الخارج... لكن في الداخل كان شيءٌ ما يتحوّل.

كان السؤال الذي سمعه دُنْدُن في استراحة المدرسة أشبه بشرارةٍ سقطت على ورقٍ جاف. لم يحدث الانفجار فورًا، لكن أثره بدأ يظهر ببطءٍ لا يلتفت إليه أحد: دخانٌ خفيف، ثم رائحة تغيّر لا تُرى.

ومع مرور الأيام لم يعد دُنْدُن ذلك الشاب الذي يعود من المدرسة بالروح نفسها. صار صامتًا أكثر، يطول شروده، وتبتعد عيناه عن الأشياء التي كانت تمنحه معنىً واضحًا ذات يوم.

هنا بالضبط... بدأ مشهدٌ جديد.

في تلك الفترة بدأ دُنْدُن يميل إلى العزلة أكثر من المعتاد. لم تكن عزلةً صاخبة، ولا انسحابًا معلنًا، بل ابتعادًا هادئًا، يحدث دون تفسير، لكنه يترك أثره واضحًا في طريقة نظره إلى الأشياء.

وفي ليالٍ متكررة كان خيطٌ من الضوء يتسلل من تحت الباب: ضوء هاتفٍ لا ينام. كان يتحرك على الأرض كأثرٍ صغير، علامةٍ على سهرٍ طويل لا يتشارك فيه أحد.

ومن خلفه كانت الأصوات تمتزج: ضحكات ساخرة، كلمات حادة، انتقادات للدين تُقال بثقةٍ عالية، ومقاطع تُسمّى "مناظرات" لكنها تُبنى أحيانًا على سرعة الإيقاع أكثر مما تُبنى على تدرّج الفهم. لم يكن أحد يعرف أسماء المتحدثين، لكن نبرة الصوت كانت واضحة: حديثٌ يُغري بالتحدي، ويقدّم السخرية كأنها دليل نضج، ويعامل الشك كأنه موقفٌ مكتمل لا مرحلة.

ومع تكرار الليالي بدأت تلك الأصوات تصبح مألوفة داخل دُنْدُن، أكثر مما تصبح مألوفة أصوات البيت نفسه.

في اليوم التالي سأل الأب بهدوءٍ يشبه خوفًا لا يريد أن يفضحه:

«يا بني... ماذا تشاهد كل ليلة؟»

أجاب دُنْدُن بصوتٍ منخفض:

«فقط مقاطع... شيء خفيف... »

لكن الإجابة لم تكن خفيفة في معناها. كانت أشبه بحجرٍ صغير يوضع أول مرة في جدارٍ لا يُرى، ثم يُبنى عليه مع الوقت.

الأم—بحدسها الذي لا يحتاج إلى أدلة كثيرة—شعرت بأن شيئًا يتغير، لكنها لم تتلقَّ إشارة واحدة تشرح ما يجري. كانت تقول في داخلها: "هذا ليس الصوت الذي أعرفه... ولا النظرة التي اعتدتُها."

وبدأ دُنْدُن يطرح أسئلة لا تشبه طريقته القديمة في الإيمان:

«من قال إن الصلاة واجبة؟»

«لماذا نسمع كلام رجال الدين؟»

«من قال إن القرآن محفوظ؟»

«أين الدليل؟»

أسئلة تبدو عميقة حين تُقال منفردة، لكنها كانت—في كثير من لحظاتها—أثرَ مقطعٍ قصير، أو فكرةٍ مقطوعة من سياقها، أو قناعةٍ تُزرع بسرعة ثم تُترك بلا متابعة. لم تكن المشكلة في السؤال نفسه، بل في الطريقة التي يُحمل بها: بلا منهج، وبلا صبرٍ على التعقيد، وبلا استعداد لتمييز الدليل من الانطباع.

لم يكن ضياعًا يبحث عن جوابٍ واضح، بقدر ما كان ارتباكًا يبحث عن لغةٍ تشبهه. وصوت الإنترنت كان أسرع حضورًا من صوت البيت.

ثم جاءت لحظةٌ أحدثت شقًا أعمق. قال صوتٌ عبر الهاتف—بتعبير جارح:

«أبوك وأمك ضحايا غسل أدمغة... وأنت أول واحد في عائلتك يفتح عقله.»

كانت الجملة وحدها كافية لتُربك شابًا في عمره. فهي لا تمسّ الدين فقط، بل تمسّ أقرب الناس إلى قلبه: تُسقط الثقة، وتزرع معنىً جديدًا للعلاقة، قائمًا على المفاضلة لا على الرحمة.

ومن بعدها لم يعد دُنْدُن يرى والديه كما كان يراهما. بدأ يشعر بمسافةٍ يتخيلها تفوقًا: هما "قديمان"، وهو "أكثر وعيًا". وكان ذلك أول جدارٍ صلب بينه وبين الدفء الذي تربّى فيه.

في تلك الأيام كان البيت يلاحظ التفاصيل الصغيرة دون أن يفهم صداها: بابٌ يُغلق بهدوء، ضوء هاتف، نومٌ متأخر، وأسئلة لا تهدأ. ولم يكن ما يحدث موقفًا فكريًا مكتملًا، ولا بحثًا فلسفيًا ناضجًا، بل بابًا فُتح على عجل، ولم يكن دُنْدُن يعرف بعد كيف يضع له حدًّا.

وكان ذلك الطريق... يقود مباشرة إلى عالم الشبهات.

الفصل الخامس

سقوطُ البيت... قبل سقوطِ دُنْدُن

حين تمتدّ النار من الغرفة... إلى الجدران كلّها



لم يكن الباب المغلق في غرفة دُنْدُن مجرد بابٍ يُغلَق... بل صار علامةً على شيءٍ آخر: بداية انسحابٍ هادئٍ من العالم، لا يُرى في لحظته، لكن أثره يتّسع بصمت.

كانت التفاصيل تبدو عادية: ليلٌ يطول، نظراتٌ شاردة، أسئلةٌ بلا جذور، وخطواتٌ في الممرّ حين ينام الجميع. لكن التفاصيل الصغيرة—حين لا تُفهم—قد تتحول إلى إشاراتٍ مؤجلة، لا تُقرأ إلا بعد فوات الأوان.

بدأ دُنْدُن يسهر خارج البيت. يمشي بلا هدفٍ محدد، الهاتف في يد، وفي جيبه قنّينة صغيرة جرّبها مرة ثم عاد إليها مرات؛ لا طلبًا للمتعة بقدر ما كان بحثًا عن تخفيف ضجيجٍ داخلي صار أثقل من قدرته على الاحتمال. لم يكن يهرب من الناس، بل يهرب من نفسه حين تضيق به.

كانت أمّه تنتظره خلف الباب. ترى ظلّه يقترب متعبًا، وتهمس في داخلها بدعاءٍ لا تريد أن يسمعه أحد. ثم تتظاهر بالنوم حين يدخل، كأنها تخشى أن تنهار دمعتها فتزيده انكسارًا، أو أن يفضح ارتباكُه ارتباكَها.

أما الأب فكان يخرج في آخر الليل إلى فناء الدار. يرفع رأسه نحو السماء بعينين لا تعرفان النوم، ويسأل نفسه بصوتٍ منخفض: أين تغيّر الطريق؟ أين

بدأت المسافة؟ لم يكن يجد جوابًا واحدًا واضحًا، لأن ما يحدث أحيانًا لا يبدأ بخطأٍ كبير، بل بتراكمٍ صغير: مصدرٌ جديد للمعنى، لغةٌ جديدة، وإيقاع سريع يسبق الفهم.

وكانت الأيام التي سبقت تلك الليلة تحمل إشاراتٍ متفرقة لم يجمعها أحدٌ في معنى واحد: تأخرٌ يتكرر، مزاجٌ متقلب، جُمَلٌ مقتضبة حين يُذكر وقت الصلاة، وتوترٌ غريب كلما سُئل عن رفقته أو عن الساعات التي يقضيها وحده أمام هاتفه. لم تكن الأسرة تبحث عن اعترافٍ أو صدام، لكنها كانت تشعر أن شيئًا في الداخل يتغير، وأن الصمت لم يعد حيادًا بل صار مسافة.

ثم جاءت تلك الليلة...

عاد دُنْدُن متوترًا. فتح الباب بعنفٍ مفاجئ ثم أغلقه بقوةٍ كأن يده سبقت وعيه. اهتزّ البيت على وقع خطواته الثقيلة. خرج الأب من غرفته بسرعة؛ لا بوجه الغضب، بل بوجه القلق. وقف أمام ابنه يبحث بعينيه عن ملامح مألوفة وسط هذا التشنج، وقال بصوتٍ يجمع الرجاء بالحيرة:

«يا بني... ما بك؟ لماذا تعود هكذا؟»

حاول دُنْدُن أن يتجاوزه دون جواب. مدّ الأب يده برفق ليوقفه عند المدخل:

«لحظة... أين كنت؟ ولماذا هذا الاضطراب؟»

قال دُنْدُن بضيقٍ متقطع:

«تعبان... دعني أدخل.»

اقترب الأب خطوةً وخفّض صوته، كأنه يخشى أن تتحول الجملة إلى خصومة:

«أنا لا أريد أن أضيّق عليك. لكن هذا الأسلوب لا يشبهك. البيت كلّه يتوتر حين تعود بهذه الحالة.»

ارتفع صوت دُنْدُن قليلًا، كمن يدافع عن نفسه أكثر مما يشرح:

«أنتم لا تتركون لي مساحة. كل شيء عندكم سؤال وجواب... وكل كلمة تُحسب عليّ.»

قال الأب بهدوءٍ ثابت:

«ليس حسابًا. نحن نريد فقط أن نفهمك، وأن يبقى الكلام بيننا محترمًا.»

سكت دُنْدُن لحظة، ثم قال بنبرةٍ مختلطة بالإنهاك:

«أنا تعبت من هذا كله... من الكلام نفسه، ومن المعاني نفسها. كأن حياتي يجب أن تمشي على شكل واحد... وأنا لم أعد أرى الأشياء كما كنتم ترونها.»

توقف الأب عند العبارة. لم يجادلها فورًا، بل سأل كما يسأل من يخاف أن يخطئ الفهم:

«هل تقصد أنك لم تعد مرتاحًا مع ما تربّينا عليه؟ مع الصلاة... مع الدين؟»

لم يردّ دُنْدُن بكلمة "نعم" واضحة. قال بدلًا منها، كأنه يصف شعورًا لا موقفًا:

«أنا لا أعرف. لكني لم أعد أستطيع أن أعيش وكأنني متأكد من كل شيء. وحين أسمعكم تتكلمون بثقة... أشعر أنني خارج المشهد.»

قال الأب بصوتٍ منخفض:

«أفهم حيرتك. لكني أخاف أن تتحول الحيرة إلى كسر. أخاف أن يصبح البيت مكانًا تتعب فيه أكثر مما تستريح.»

تنفّس دُنْدُن بحدة، ثم خرجت منه جملة قصيرة، لا تعلن قطيعة، لكنها تكشف المسافة:

«لا تطلبوا مني الآن أن أكون كما كنت.»

صمت الأب لحظة، كأنه يعيد ترتيب ما سمعه. ثم قال بوضوحٍ حزين:

«يعني أنك تبتعد... دون أن تقول ذلك صراحة.»

لم ينفِ دُنْدُن، ولم يؤكد. اكتفى بنظرةٍ جانبية، ثم تحرك نحو غرفته وأغلق الباب.

تلك الليلة لم يسقط دُنْدُن وحده. سقطت الأم بصمت بكائها وهي تُخفي وجهها كي لا يراها أحد، وسقط الأب بكسرةٍ داخلية لم تظهر على ملامحه، وسقط البيت بثقلٍ جديد: ثقلُ أن يتحول القرب إلى مسافة، وأن يصبح الكلام محاولةً للنجاة بدل أن يكون مساحةً للأمان.

بعدها صار "الباب" أكثر من تفصيلٍ في البيت. وقف دُنْدُن خلف باب غرفته، يده على المقبض، كأن العالم انقسم أمامه إلى نصفين: نصفٌ يعرفه—صلاةٌ هادئة وصوتٌ مألوف وطمأنينةٌ بسيطة—ونصفٌ آخر تقوده إليه شاشةٌ صغيرة وكلماتٌ متفرقة تلتصق بالذهن. كان الباب مغلقًا، لكن الفاصل الحقيقي لم يكن الخشب، كان ما يتجمع في داخله من معانٍ جديدة تغيّر طريقة النظر إلى الأشياء.

لم يتغير الأب ولا الأم؛ بقيا كما كانا: بسيطين وصادقين في إيقاعهما اليومي. الذي تغيّر كان عين دُنْدُن: صار يظن—دون أن يقول—أنهما لا يفهمان كما يفهم هو، وأن ما يعيشه "بحث"، مع أنه كان غالبًا بحثًا بلا أدوات كافية، يلتقط مقتطفاتٍ متفرقة ثم يحاول أن يبني منها يقينًا سريعًا.

ذلك الباب لم يكن يفصل بين غرفتين فقط. لأول مرة، فصل بين دُنْدُن الذي كان... ودُنْدُن الذي بدأ يصير شخصًا آخر.

ومن هنا... بدأ سقوطُ البيت... قبل سقوط دُنْدُن.

الفصل السادس

الهاوية الأولى

حين تشتدّ العتمة ولا يفهم أحد أين اختفى الضوء



بعد تلك الليلة التي انكسر فيها البيت على نحوٍ لم يعتده أحد، تغيّر شيءٌ عميق في داخل دُنْدُن. لم يعد الغضب وحده هو المشكلة، ولا الأسئلة التي كانت تتكاثر، ولا حتى محاولات الهروب الصغيرة التي صار يعود إليها أكثر مما ينبغي.

المشكلة الأشد كانت الصمت: صمتٌ ثقيل يلتفّ حوله في غرفته، وفي الأزقة التي يمشي فيها بلا مقصد، وفي داخله أيضًا. صمتٌ لا يجيب عن سؤال، ولا يعيد قلبًا مترددًا إلى طريقه، بل يدفع صاحبه خطوةً بعد خطوة نحو مساحةٍ أكثر ضيقًا من أن تُسمّى حياةً عادية.

وكانت تلك... الخطوة الأولى.

لم يكن دُنْدُن ينوي دخول عالمٍ جديد تلك الليلة. ولم يتخيل أن الباب الذي أغلقه خلفه سيصبح علامةً على بداية طريقٍ لا يشبه شيئًا من طفولته. كل ما أراده—أو هكذا ظن—أن يبتعد قليلًا: أن يلتقط أنفاسه، أن ينجو من نظرات أمّه، ومن أسئلة أبيه، ومن صوته الداخلي الذي صار يضغط عليه أكثر مما يحتمل.

لكن المسافة الصغيرة التي وضعها بينه وبين والديه كانت كافية لشيءٍ آخر أن يقترب منه.

جلس أمام هاتفه. تلك الشاشة التي تخيّلها استراحةً مؤقتة، فإذا بها تتحول تدريجيًا إلى مرجعيةٍ وحيدة لا ينتبه المرء إلى ثقلها إلا بعد أن تتسع. فتح مقطعًا... ثم آخر... ثم ثالثًا. وفي كل مرة كان يجد سؤالًا جديدًا، وصوتًا يتكلم بثقة، وجُمَلًا تلامس الثغرة التي تركتها تلك الليلة: ثغرة تتسع يومًا بعد يوم.

لم يكن يملك أدواتٍ تساعده على فرز ما يسمع: ما الذي هو سؤالٌ مشروع، وما الذي هو إيحاءٌ لغوي يُقنع قبل أن يُبرهن. كان يجمع كلامًا مبعثرًا من جهات متعددة، ثم يلصقه في داخله ليصنع منه "قناعة" سريعة؛ قناعة تمنحه تفسيرًا لابتعاده، حتى لو كانت هشة عند أول اختبارٍ جاد.

شيئًا فشيئًا صار البيت يبدو له غريبًا، وصار أبوه وأمّه ينتميان—في نظره—إلى "عالمٍ قديم". لم يتغيرا في الحقيقة، لكن زاوية نظره إليهما تغيّرت. صار يشعر أن اللغة المشتركة بينه وبينهما تتراجع: ما كان يطمئنه بالأمس صار يربكه اليوم، وما كان يراه بديهيًا صار يطلب منه تبريرًا لا ينتهي.

ومع الأيام لم تعد الأسئلة وحدها تكفيه. كان يحتاج ما يُخفف الضجيج، وما يؤجل مواجهة نفسه. صار يطيل الجلوس مع المقاطع والحوارات السريعة، ثم يبحث—حين يشتد الضغط—عن وسيلةٍ تُسكّن الإحساس وتمنحه نسيانًا مؤقتًا. كان يقول لنفسه، في لحظة صدقٍ متعبة، ما معناه: إمّا أن أُسكت هذا الداخل قليلًا... أو أن أختنق من كثرة التفكير.

تراجع عن أشياء كثيرة: عن البيت، وعن الحديث الهادئ، وعن لحظات السكون التي تُجبره على مواجهة نفسه. وحين يبدأ الإنسان بالهروب من نفسه، لا يبقى أثر ذلك محصورًا فيه وحده. تتأثر العائلة كلها: أمٌّ تبكي بصمت، وأبٌ يتكسر من الداخل وهو يحاول أن يبقى ثابتًا، وإخوةٌ يتوزعون بين الخجل والغضب والارتباك.

لكن دُنْدُن لم يكن يرى المشهد كاملًا. كان يرى العالم من نافذةٍ ضيقة، ويعيش على إيقاع صوتٍ واحد يتكرر داخله: لا تتوقف... لا تعد الآن. وهكذا بدأت أول خطوة حقيقية نحو الهاوية. لم تكن قفزةً درامية، ولا سقوطًا سريعًا. كانت انحدارًا هادئًا ومتدرجًا، يحدث ببطءٍ لا يلاحظه أحد... إلا حين يصبح الرجوع أصعب مما تخيله الجميع.

الفصل السابع

الحُفرة العميقة

حين لم يجد مجلسًا من نور... فجلس حيث تلمع الشبهات



بعد أسابيع من السقوط الصامت، لم يعد دُنْدُن يبحث عن الحقيقة، ولا عن العلم، ولا عن جوابٍ يرمّم قلبه. كان يبحث عن شيءٍ واحدٍ فقط: مكان لا يشعره بأنه وحيد. مكان لا يقيّده، ولا يسأله كثيرًا، ولا يطالبه بتفسيرٍ لكل ما يقول، ولا يطفئ غضبه في اللحظة التي يظنّ فيها أن الغضب هو آخر ما يملكه. مكان يمنحه شعورًا بالأمان... حتى لو كان أمانًا مؤقتًا أو مُصطنعًا.

ومن هنا بدأت الحفرة الحقيقية.

لم يكن دُنْدُن يريد شهرة، ولا مواجهة، ولا نقاشًا فلسفيًا طويلًا. كان يريد أن يسمع من أحدهم، ولو مرة: "أنت لست وحدك." وبسبب هذا الاحتياج—البسيط في ظاهره—صار قلبه أسهل قابليةً للاستدراج.

بدأ يدخل الغرف الصوتية (محادثات صوتية مباشرة عبر الإنترنت) كأنها مقاهٍ مفتوحة ليلًا. يمرّ من واحدةٍ إلى أخرى، يجلس دقائق، ثم يخرج، ثم يعود إلى غرفةٍ جديدة... كأن قلبه يدور حول نفسه ولا يجد كرسيًا ثابتًا يستقر عليه. كان يختبئ خلف أسماءٍ مستعارة وصورٍ مختلفة، ويقنع نفسه أن تغيّر الاسم يعني تغيّر الداخل، بينما كان الداخل، في العمق، يبحث عن الشيء ذاته: انتماءٌ سريع، بلا شروط.

وفي إحدى الليالي وجد مجلسًا يشبه ظلّه: أصواتٌ تتكلم بثقةٍ عالية، تشكّك كثيرًا بلا تثبّت، وتتعامل مع المسلّمات الدينية كأنها مادة للسخرية أو التفكيك السريع، وتبتسم لأي عبارةٍ تُقال ضد الفطرة. لم يكونوا—في الغالب—أوسع منه علمًا ولا أعمق فهمًا، لكنهم كانوا يملكون ما يبحث عنه حقًا: الطبطبة، مواساةٌ تُوزَّع بسخاء... بلا فحصٍ ولا مسؤولية.

فجلس بينهم.

لم يقترب منه أحدٌ بسؤالٍ حقيقي، ولا بمحاولة فهمٍ صادقة لما يحدث في داخله. لم يقل أحد: "تأنَّ... هذه شبهة تحتاج سياقًا." ولا: "ما الذي يؤلمك أصلًا؟" ولا: "تعال نبحث معًا." بل قيل له ما هو أسهل—وأشد أثرًا: "أحسنت." "أنت متفتح." "واصل." "أخيرًا واحد فاهم."

في تلك اللحظة وقع الفخّ الذي يسبق كثيرًا من السقوط: وجد حنانًا يشبه الحنان... لكنه لا يشفي، بل يُخدِّر. وتصفيقًا يشبه التقدير... لكنه لا يُثبت، بل يدفع صاحبه خطوةً إضافية نحو الحافة. وحضنًا يشبه الحماية... لكنه في الحقيقة يترك الغريق أعمق مما كان.

لم تكن كلماتهم علاجًا.

كانت مُسكّنًا.

صار ذلك التشجيع مثل مُسكّنٍ شفّاف: لا ألم عند دخوله، لكن أثره يمتدّ ببطء، ويعيد تشكيل الحساسية الداخلية؛ ما كان يزعجه بالأمس لا يزعجه اليوم، وما كان يستوقفه اليوم قد يصبح—غدًا—مادةً للتماهي.

ومع الوقت صار دُنْدُن ينتقل من مجلسٍ إلى مجلس، ومن صوتٍ إلى صوت، ومن فوضى إلى فوضى. يجلس ساعاتٍ طويلة في بثٍّ مباشر، وينتظر "دوره" كما ينتظر شخصٌ مُجهَد لحظةَ اعترافٍ صغيرة بأنه مرئيّ ومسموع. وحين يأتيه الدور... يبدأ الكلام. لا يقدّم فكرةً مكتملة، ولا يملك دليلًا، ولا يعرف السياق. يكفي أن يكرر عباراتٍ سمعها بالأمس... فيُرفع صداها اليوم كأنها اكتشاف. يتكلم بمصطلحاتٍ كبيرةٍ لا تسكنه، ويلقي شُبهاتٍ مبتورة، ويردد كلماتٍ بلا جذور.

ومع ذلك يُقابل كل ذلك بـ: "بالضبط." "كلام قوي." "واصل." "أحرقتهم بالمنطق." وهو يعرف—في مكانٍ ما داخله—أنه لم يُحكم منطقًا، بل حصل على إشارة قبول.

كان هذا كافيًا ليتوهّم أنه صار "شخصًا جديدًا".

في تلك اللحظات بدأ يشعر أنه وجد "أصحابه": أول بيئة لا تصحح له، ولا تطلب منه أن يهدأ، ولا تراجعه إذا أخطأ التعبير أو قفز على النتائج. بيئةٌ لا تضع مرآةً أمامه... بل تضع وسادةً تحت كل سقوط، كي يواصل السقوط بلا مقاومة.

وبين غرفةٍ وأخرى كان ينزل درجةً جديدة في الحفرة. حفرة لا تبتلع الجسد... بل تبتلع الوعي. لا تكسر العظام... بل تكسر البوصلة. يخيَّل إليه أنه "تحرر"، بينما كان في الحقيقة يفقد آخر خيطٍ يربطه بالبيت، وبنفسه، وبنور الفطرة.

وكانت تلك... أخطر ليلةٍ في حياته.

الفصل الثامن

خيطُ من البيت



حين حاولوا أن ينقذوه... ولم يعرفوا من أين يُمسكون البداية، مرّت أيامٌ تالية بطيئة، كأن البيت يمشي على أطراف أصابعه. كان دُنْدُن حاضرًا بجسده، غائبًا بعينيه، وكل شيءٍ فيه يوحي بأنه يجو من النهار ليعود إلى ليله الخاص. لم تقع كارثةٌ ظاهرة، لكن الإشارات كانت تتراكم بصمت: سهرٌ أطول، وجهٌ أشحب، وحديثٌ أقصر، كأن الكلمات صارت عبئًا لا ضرورة له.

وفي ليلةٍ بدت عادية... قرر الصمت أن ينكسر.

دخل دُنْدُن متعبًا. نظر إليه أبوه طويلًا، ثم قال بهدوءٍ لم يخفِ قلقه: «يا بني... سألتك سابقًا، وسأسألك الآن بصراحة... هل تركت الصلاة؟» لم يجب دُنْدُن مباشرة، بل قال بصوتٍ متردد: «يا أبي... أرى أن الدين يجب أن يبقى في المساجد فقط... وكل شخص حرّ في حياته.» سكت الأب لحظة، ثم قال: «أنا لم أسألك عن الناس... سألتك عنك أنت.» خفَض دُنْدُن عينيه وقال: «صارت عندي أسئلة يا أبي... أسئلة كثيرة.» لم يغضب الأب، بل قال بهدوءٍ حزين: «دعنا نبحث عنها معًا... لا تبقَ وحدك.»

وفي صباح اليوم التالي... ذهبوا إلى الإمام.

جلس دُنْدُن أمامه، بينما جلس الأب إلى جانبه صامتًا. سأل الإمام بلطف: «ما الذي يشغل قلبك يا بني؟» تنفّس دُنْدُن ببطء، ثم قال: «أتساءل... لماذا فرض الله علينا الصلاة؟ ولماذا يوجد الشر والمعاناة؟ ولماذا لم يظهر لنا الله بوضوح حتى ينتهي الشك؟» سكت المكان لحظة.

ابتسم الإمام ابتسامةً هادئة، وقال دون استعجال: «يا بني... قبل أن نحكم على شيء، يجب أن نفهمه. الله سبحانه لم يخفِ الحكمة، بل بيّن أن الحياة امتحان: ﴿الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملًا﴾، وبيّن أن وجود الخير والشر معًا هو الذي يكشف معنى الاختيار. أنت لا تعرف الظلمة إلا لأنك عرفت النور، ولا تعرف الألم إلا لأنك عرفت الراحة. أما من يولد بمعاناة، فأنت تراه ابتلاءً، لكن الله يراه عبدًا كرّمه بابتلاءٍ يرفعه به درجات، وقد جعل لمن صبر عوضًا لا يضيع. ثم الصلاة يا بني... ليست عبئًا كما يظنها من لم يذقها، بل راحة، حتى إن النبي ﷺ كان يقول: أرحنا بها يا بلال. المؤمن يهرب إلى الصلاة... لا منها.»

كان دُنْدُن يستمع دون مقاطعة.

أكمل الإمام بهدوء: «المشكلة يا بني ليست في السؤال... بل في الطريق الذي نبحث فيه عن الجواب. بعض الناس يسمع الشبهة قبل أن يتعلم الأصل، فيهتزّ، لا لأن الشبهة قوية... بل لأن الأساس لم يُبنَ بعد.»

ثم سكت لحظة، وسأله سؤالًا مباشرًا: «هل قرأت القرآن كاملًا؟»

تردد دُنْدُن، ثم قال: «لا... لكني لم أعد متأكدًا أنه من عند الله.»

هنا فقط نظر الأب إليه، كأن الكلمة أصابته في مكانٍ لم يكن مستعدًا له.

أما الإمام فلم يتغير صوته. قال بهدوء: «وهل بحثت بنفسك... أم اكتفيت بما سمعت؟»

لم يجب دُنْدُن.

فقال الإمام برفق: «يا بني... الطريق لا يُقطع بالقفز. اقرأ أولًا... تعلّم... ثم احكم. الإيمان لا يطلب منك أن تلغي عقلك... بل أن تسير به كاملًا، دون استعجال.»

ثم التفت إلى الأب، وقال بصوتٍ منخفض: «عاملوه بهدوء... لا تضغطوا عليه... ولا تتركوه وحده.»

خرجوا من المسجد.

كان الأب يمشي ببطء، كأنه يحمل عمرًا كاملًا على كتفيه.
أما دُنْدُن... فكان يمشي خلفه بصمت.
لم يكن مقتنعًا.
ولم يكن رافضًا.
لكنه لم يعد أيضًا... كما كان.
ولم يعد الباب... مغلقًا تمامًا.

الفصل التاسع

السباحة في الظلام

حين يصبح الصوت هو الهوية



بعد محاولة البيت أن يفتح نافذةً في جدار الصمت، لم يحدث التحوّل الذي تمنّاه أحد. لم يعد دُنْدُن يكتفي بالاستماع في تلك المجالس التي تمنحه قبولًا سريعًا، صار يريد أن يكون جزءًا من الضجيج نفسه. كأن الجلوس على الأطراف لم يعد يسكّن شيئًا، وكأن التصفيق—ولو كان مجانيًا—صار شرطًا لكي يشعر أنه موجود.

لم يعد يبحث عن الهروب فقط.

صار يبحث عمّا يُثبت له أنه لم ينهزم.

لم يكن يدخل البثوث ليشارك "فكرة"، بل ليتنفّس. كان يشعر أنه حين يرفع المايك يتحرر قليلًا من واقعه، ومن البيت، ومن الأسئلة التي تلاحقه إذا أغمض عينيه. صار الصوت مرآةً جديدة تعكس صورةً أجمل مما يرى في نفسه... لكنها مرآةٌ لا تقول الحقيقة كاملة.

كان يتنقل بين الغرف الصوتية كما يتنقل شخصٌ تائه بين مقاهٍ مظلمة: يدخل دقائق، يلتقط نبرةً أو عبارة، ثم يخرج إلى غرفةٍ أخرى بحثًا عن المكان الذي يشبه وجعه أكثر. وفي كل مرة يجد الأصوات التي تعرف كيف تمنح المكافأة السريعة: "أحسنت." "واصل." "متنوّر." حتى إن لم يكن ما قاله

شيئًا مكتملًا. كانت كلمات قصيرة، لكنها تعمل في الداخل عملها: تخفف الألم لحظة... وتؤجله إلى ما بعد.

ومع الوقت لم يعد دُنْدُن يلاحظ أنه يدفع ثمنًا صغيرًا كل مرة: قليلًا من الصدق مع نفسه، وقليلًا من التردد الذي كان يحميه من الوقوع الكامل.

في إحدى الليالي دخل غرفةً أشد صخبًا من غيرها: سبابٌ متبادل، سخرية، مزاحٌ ثقيل، وأصوات تتبارى في الهدم أكثر مما تتنافس في الفهم. ومع ذلك رفع دُنْدُن المايك. لم تكن الثقة التي خرج بها نتيجة علمٍ أو ترتيبٍ للفكرة؛ كانت ثمرة ذلك التصفيق الذي صار غذاءه.

قال كلمات مبعثرة جمعها من هنا وهناك: شُبهات لم يمسك أطرافها، ومصطلحات لا يعرف جذورها، وجُمَلًا كبيرة تُقال لتبدو "قوية" لا لتكون صحيحة. ثم حدث ما أصبح يتوقعه في أعماقه: اشتعلت التعليقات.

"كلامك قوي."

"واصل."

"أنت فاهم."

في تلك اللحظة لم يشعر أنه مجرد مشارك عابر. شعر أنه صار "صوتًا". صوتٌ له مكان، وصدى، وقيمة... حتى لو كانت القيمة مبنيةً على فراغٍ لا يراه من الداخل.

عاد دُنْدُن في آخر تلك الليلة دون ندمٍ واضح، ودون خوفٍ واضح، ودون ترددٍ واضح. عاد وفيه نشوةٌ بسيطة: أن يُسمَع. ولو كان ما يُقال خطأ. وأن يشعر بقيمةٍ ما. ولو كانت وهمًا. وأن يجد مكانًا لا يصححه، ولا يعاتبه، ولا يطلب منه أن يتوقف ليراجع نفسه، بل يقول له دائمًا: "أنت على حق... أكمل."

وهكذا بدأت هويته تتشكّل بطريقةٍ لا يلاحظها إلا من يراه من الخارج: ثقةٌ بلا أساس، ومعرفةٌ بلا جذور، وشخصيةٌ تُبنى على الاستحسان أكثر مما تُبنى على الحقيقة. لم يكن "صوتًا بلا وجه" فقط، كان وجهًا يختفي كي لا يواجه نفسه، وصوتًا يتقدم كي لا يسمع ما في داخله.

وبهذا بدأ دُنْدُن يسبح—لا في بحرٍ—بل في ظلامٍ يظنه واسعًا، وهو في الحقيقة حفرة.

وفي نهاية ذلك الأسبوع دخل غرفةً جديدة... لم تكن مثل غيرها. لم تكن تبحث عن التسلية ولا عن الجدال العابر.

كانت تبحث عن الأدوات.

وكان صوت دُنْدُن... واحدًا منها.

ومن هنا يبدأ القادم.

الفصل العاشر

التحالفاتُ المظلمة

حين يلتقي دُنْدُن بأولِ مَن سيستغلُّ صوته



لم يكن دُنْدُن يبحث عن "تحالف". ولم يكن يعرف أصلًا أن أحدًا صار يراقب صوته من بعيد. كان يضغط على "انضمام" ليهرب من نفسه... ولا يرى أنه يقترب، خطوةً بعد خطوة، من شبكةٍ لا تُري خيوطها لمن يسير داخلها.

في إحدى الليالي دخل غرفةً تختلف عمّا اعتاده. لم تكن صاخبة، ولا ساخرة، بل هادئة على نحوٍ يثير الريبة. أصواتٌ قليلة، لكن كل صوتٍ فيها بدا متزنًا، يعرف كيف يُنهي جملته، وكيف يترك أثرها في الهواء. كأن الحديث هنا لم يكن للتنفيس، بل للتوجيه.

استمع دُنْدُن. لم يفهم كل شيء، ولم يُمسك الخيط من أوله، لكن شيئًا جذبه: للمرة الأولى لم يُقاطعوه، ولم يدفعوه إلى المزاح الرخيص، ولم يحوّلوا كلامه إلى نكتة. تركوه يتكلم حتى النهاية.

وهذا وحده... كان كافيًا.

بعد دقائق بدأ يصل إليه الخاص. رسائل قصيرة، محسوبة، لا تبدو كالأوامر، بل كنصائح ممن يعرفون الطريق. لم يذكروا أسماءهم، ولم يعلنوا انتماءً واضحًا، ولم يدّعوا قيادة. كانوا ظلالًا صوتية تتلاقى على اتجاهٍ واحد:

اختيار موضوعٍ يضمن التفاعل السريع، والانقسام السريع، والاشتعال السريع.

اختاروا بوابةً يعرفون أنها لا تخمد بسهولة: قضايا المرأة.

ليس لأن الموضوع بسيط، بل لأنه حساس، ومتداخل، وفيه مظالم وتجارب شخصية، وفيه أيضًا قابلية عالية للاستغلال. حين يكون القلب مجروحًا، يكفي أن تأتيه عبارة تؤكد غضبه ليظنّ أنه حصل على "حقيقة".

وحين يتغذى الغضب بالتشجيع، يصبح التحقق عبئًا، ويصير السياق تفصيلًا غير مرغوب فيه.

لهذا بدأوا من هنا.

قالوا له في الخاص، بعباراتٍ تبدو عملية:

ركّز على الحكايات التي تشتعل بسرعة.

ابدأ بما يُستفز به الناس عادةً، ثم انتقل إلى الأحكام.

تحدث بثقة... حتى لو لم تُكمل الفهم.

ثم بدأوا يقدّمون له العناوين التي يعرفون أنها تُستغل بكثرة: سنّ عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، وقصة زيد وزينب رضي الله عنهما، ومسائل

الإرث، والقوامة، والحجاب، وما يتصل بتاريخ السبي، وذكر صفية بنت حيي رضي الله عنها.

كانت قضايا تُختطف من سياقاتها، وتُقدَّم في صورة طعنٍ سريع أو سؤالٍ مُلغَّم، لتتحول من أبوابٍ تحتاج علمًا وتؤدة... إلى مادةٍ جاهزة للجدل.

وكان دُنْدُن يسمع... ثم يتكلم.

لم يكن يملك أدوات الإجابة، لكنه كان يملك أثر الكلام.

يكفي أن تكتب له امرأةٌ واحدة:

«أخيرًا أحد يفهمنا.»

ثم أخرى:

«أيوووز إشك ثومات.»

« كلامك جريء.»

ثم تعليق:

«استمر.»

أو "صحيح برابو"

كانت كلمات قصيرة... لكنها في داخله صنعت فرقًا كبيرًا. لم تمنحه علمًا... لكنها منحته شعورًا بالقيمة.

وبدأ يجمع كل ما يتصل بهذه القضايا كما يجمع شخص أدواته قبل المعركة: عناوين، مقاطع، جُمَلٌ جاهزة. لم يعد يعود إلى أصلٍ ولا يثبت سياقًا، لأن المطلوب لم يكن الفهم... بل التأثير.

ومع الأيام تشكلت حوله دائرةٌ جديدة. لم يكونوا طلاب علم، ولا أصحاب بحث، بل أصواتًا تبحث عن صدام: من جُرحوا ويريدون انتقامًا، ومن يهربون من التكاليف ويريدون تبريرًا، ومن يفتنون بفكرة "الجرأة" حتى لو كانت جرأةً على المعنى قبل أن تكون على النص.

كانوا يسمّون أنفسهم "أحرار الفكر".

لكن الحقيقة كانت أبسط من الاسم... وأخطر من المعنى.

وللمرة الأولى لم يعد دُنْدُن مجرد مشارك.

صار أداة.

يقول ما يُقترَح عليه. ويعيد ما يُرسل إليه. ويتكلم بما لا يملك له علمًا كافيًا... ثم يأتيه التصفيق:

«أحسنت.»

«واصل.»

«أنت مختلف.»

ولو سأله أحد: من هؤلاء؟

لن يعرف الإجابة.

او يقول لاأعرفهم حقيقتا ولايهم!

هو لا يراهم. لا يعرف أسماءهم. فقط أصواتٌ تأتي وتختفي. ورسائل تصل... ثم تنقطع.

ومع ذلك... كان يشعر أن له مكانًا بينهم.

وكان يظن—وهو يتقدم كل ليلة خطوةً أخرى—

أنه يختار الطريق...

بينما كان الطريق...

يُختار له.

الفصل الحادي عشر

انكسارُ الحُرمة

حين يختلط شعارُ الحرية بفقدانِ الحدّ... ثم يُمتَحَنُ الكلامُ في الحياة لا في الجدال



لم يحتج دُنْدُن وقتًا طويلًا ليكتشف أن الطريق الذي دخل إليه لم يكن قائمًا على الفهم... بل على الأثر. بعد تلك الليالي التي صار فيها صوته يُطلَب، لاحظ تفصيلًا غيّر طريقه كله: لم يكن الناس يتجمعون حول الأكثر علمًا، بل حول الأكثر إثارة. كان يرى الغرفة هادئة، ثم يصرخ أحدهم أو يرمي كلمةً جارحة، فتقفز الأعداد فجأة. يدخل العشرات في ثوانٍ، وتتسارع التعليقات: ماذا حدث؟ من هذا؟ لماذا يصرخ؟ وكان يرى في المقابل من يتكلم بهدوءٍ فلا يكاد يسمعه أحد، كأن الهدوء لا يملك حق الوجود في ذلك المكان.

في البداية اكتفى بالملاحظة. ثم بدأ يفهم القاعدة غير المعلنة: الانتباه لا يُمنح... بل يُنتزع. وشيئًا فشيئًا صار يشعر أن حضوره مرتبط بقدرته على رفع السقف، لا بقدرته على بناء المعنى. زاد الأمر وضوحًا حين بدأ الخاص يمتلئ برسائل لم تعد تكتفي بإرسال الشبهات، بل ترشده إلى "الطريقة" نفسها. كانوا يقولون له بوضوحٍ لا يخلو من تشجيع: لا تدخل في نقاشات طويلة، لا تمنحهم فرصة ليرتّبوا أفكارهم، ألقِ ما عندك وامضِ. وإن حاول أحدهم أن يناقشك، لا تُطِل الوقوف معه... أنت حرّ، قل ما تشاء واتركه.

بعضهم كان أصرح من ذلك: الكلمات القاسية تُربكهم، تجعلهم يتراجعون، وتجعل من يشاهد يظن أنك الأقوى.

لم يكن دُنْدُن يحتاج إلى كثير إقناع. كان قد جرّب بنفسه كيف يعمل التصفيق. في إحدى الليالي، حين احتدّ النقاش، رفع صوته أكثر من المعتاد، واستعمل لفظًا لم يكن يقوله من قبل. ساد صمتٌ قصير، ثم انفجرت التعليقات: «واصل!» «أيوووز إشك!» «أنت من الأحرار!» وفي الخاص جاءه ما يشبه التثبيت: «هكذا يكون الكلام.» «لا تتراجع.» وفي زاويةٍ أخرى كتب أحد المخالفين: «اهدأ يا دُنْدُن... لماذا تصرخ؟» فأجابه فورًا: «أنا حرّ.» لم يكن الرد دفاعًا عن فكرة بقدر ما كان دفاعًا عن موقعٍ جديد شعر أنه بلغه أخيرًا.

هناك بدأ التحول الحقيقي. لم يعد الهدف أن يفهم... بل أن يبقى في المركز. ولم تعد الكلمة وسيلة شرح... بل وسيلة سيطرة. اكتشف أن الألفاظ الجارحة لا تجذب المشاهدين فقط، بل تختصر الطريق أيضًا: تُنهي النقاش قبل أن يبدأ، وتمنح صاحبها شعورًا بأنه خرج منتصرًا دون أن يثبت شيئًا. ومع التكرار، لم تعد المسألة اختيارًا واعيًا في كل مرة، بل صارت أسلوبًا

جاهزًا، يدخل به ويخرج به، ويقيس نجاحه بكم من بقي يستمع... لا بصدق ما قال.

عندها لم يكن سقوطُ دُنْدُن سقوطًا في فكرةٍ وحدها، بل في اللغة أيضًا. اللغة التي كانت يومًا وسيلة بحثٍ صارت وسيلة إيذاء. في إحدى الليالي ارتفع صوته من وراء باب غرفته على نحوٍ لم يألفه البيت. لم يكن نقاشًا عابرًا، بل صراخًا حادًّا، وكلماتٍ قاسية خرجت بثقةٍ صادمة. لم يلتقط الأب كل لفظ، لكنه فهم ما يكفي. طرق الباب طرقًا خفيفًا، وانتظر. فتح دُنْدُن والهاتف في يده.

قال الأب بصوتٍ هادئٍ متعب: «يا بني... ما هذا الصراخ؟» أجاب دُنْدُن سريعًا: «مجرد نقاش.» نظر الأب إليه طويلًا وقال: «سمعت كلامًا يؤذي... لم نعتده منك.» اشتدّ وجه دُنْدُن وردّ بالشعار الذي صار يحمله كدرع: «أنا حرّ.» لم يرفع الأب صوته، لكنه قال بوضوح: «الحرية يا بني لا تعني أن تكسر الحدّ. هذا بيت... وله حُرمته.» لم يُجب دُنْدُن. كان جزءٌ منه يسمع... وجزءٌ آخر كان لا يزال هناك، في تلك الغرف، حيث التصفيق أسرع من التفكير.

لم تنتهِ الليلة بحسم، لكن الأب أدرك أن ابنه لم يعد فقط يطرح أسئلة، بل صار يتكلم بطريقةٍ تغيّر صورته أمام نفسه قبل الناس. وفي الأيام التالية بدأ أثر ذلك يتسرّب خارج الجدران: نظراتٌ أقصر، وصمتٌ أطول، وقلقٌ لا يقال. حاول الأب أن يفتح معه بابًا آخر، باب الحياة الواقعية التي تعيد ترتيب الإنسان. جلس معه بهدوء وقال: «يا بني... أريد أن أراك تبني حياتك، لا أن تستهلك نفسك.» لكن دُنْدُن كان قد بدأ يرى طريقًا آخر، طريقًا يظنه أوسع. قال: «أريد أن أذهب إلى أوروبا.» توقف الأب عند الكلمة، ثم قال بهدوءٍ يعرف ثقل ما يقول: «الغربة ليست هروبًا... الغربة مسؤولية.» لكن دُنْدُن لم يكن يسمع النصيحة بقدر ما كان يسمع وعدًا قديمًا في داخله: أن هناك مكانًا يستطيع أن يعيش فيه كما يريد.

في تلك المرحلة، لم يكن يدرك أن الصوت الذي أعطاه حضورًا... بدأ يأخذ منه شيئًا آخر. شيئًا لا يظهر في التعليقات، ولا يُقاس بعدد المستمعين، لكنه يظهر ببطءٍ في الداخل... حين يعتاد الإنسان أن ينتصر بالصوت، لا بالحقيقة... ومن هنا... لم يعد السؤال ماذا سيقول دُنْدُن.

لكن الأب لم يكتفِ بالنصيحة، بل حاول أن يفتح له بابًا عمليًا بهدوء. تواصل مع رجلٍ من أهل الثقة في السوق، وطلب منه أن يستقبل دُنْدُن ليتعلم التجارة. ذهب دُنْدُن احترامًا لكلمة أبيه، وبقي وقتًا قصيرًا يراقب العمل. اقترب منه صاحب المحل وقال بلطف: «أبوك يريد لك الخير يا ولدي.» شعر دُنْدُن بحرجٍ واضح، ثم أجابه بصوتٍ خافت: «جئت فقط من أجله... لكن هذا الطريق لا أراه لنفسي. أرجوك لا تخبره أني قلت ذلك.» فهم الرجل قصده، ولم يُحرجه.

عاد دُنْدُن إلى البيت أبكر من المعتاد. سأله الأب عن يومه، فتجنب عينيه وقال: «يبدو أني لم أُوفَّق... ربما لم أُعجب صاحب المحل.» لم يُجادله الأب، واكتفى بالصمت. أما دُنْدُن، فكان قد بدأ يميل إلى فكرةٍ أخرى، فكرةٍ لا تحتاج مواجهةً ولا تبريرًا. كان يظن أن الطريق الذي يبحث عنه... ليس هنا.

ما وراء البحر.

الفصل الثاني عشر

ما وراء البحر

حين اكتشف أن السفر ليس انتقالًا في المكان فقط... بل اختبارًا للمعنى



حين يكتشف الهارب أن المسافة لا تُسكت الصوت الذي في داخله

كان قرار السفر قد نضج في داخله على مهل، لكنه لم ينبت وحده. في تلك البثوث التي صار يقضي فيها لياليه، كانت تصل إليه كلماتٌ كثيرة تحمل الوعد نفسه: «تعال... هنا ستعيش كما تريد.» «لن يسألك أحد عن شيء.» «هنا الحرية الحقيقية.» كانوا يتكلمون بثقة من يعيش التجربة، حتى صار يراها خلاصًا قريبًا لا حلمًا بعيدًا. ومع الوقت، لم يعد يفكر في الصعوبة... بل في الوصول فقط. كان يظن أن هناك من ينتظره فعلًا، وأن المسافة بينه وبينهم ليست إلا وقتًا قصيرًا، وبعدها تبدأ الحياة التي يريدها.

لم تكن هجرةُ دُنْدُن انتقالًا من بلدٍ إلى بلدٍ بحثًا عن رزقٍ أو مستقبل، ولم تكن محاولةً لبناء بيتٍ أو عملٍ أو حياةٍ جديدة كما يفعل كثير من الناس.

كانت هروبًا من حدودٍ تربّى عليها: صلاةٍ تُذكِّره بنفسه، وصومٍ يردّه إلى معنى الانضباط، وحقّ جارٍ يضع للكلمة وزنًا، وبيتٍ يرى في الأدب أساسًا قبل أي رأي. كان يظن أن المسافة ستمنحه ما يسميه «حريةً مطلقة»: أن يقول ما يشاء، ويستهزئ كما يشاء، ثم يمضي دون أن يسأله أحد: ماذا تركتَ خلفك من أثر؟

وحين وصل... بدأ الامتحان من أول هاتف.
كانت الوعود كثيرة قبل الرحيل. لكن حين صار قريبًا، تغيّر الصوت. أرقامٌ تُغلق، وهواتفُ ترن طويلًا دون جواب. ومن يردّ يفتح باب الأعذار لا باب البيت: جئتَ في وقتٍ غير مناسب، دعني ساعةً وسأتصل، غدًا أكون متفرغًا، هذا المساء نلتقي. ثم لا مساء، ولا غد، ولا اتصال.
مشى في شوارع لا يعرف أسماءها، ودخل مقاهيَ يظن أن الجلوس فيها سيمنحه شكلًا من الحياة، ثم خرج منها أكثر وحدةً مما دخل. أدرك أن الغربة لا تجرح حين تكون فقيرة فقط، بل حين تكون خاليةً من الأشخاص الذين وعدوا ثم اختفوا. كان يشعر بأن ما حمله من «ثقة» قد تسرّب سريعًا، وأنه صار يفتّش عن أي بابٍ لا يسأله عن صورته، بل عن حاجته.
دخل المسجد.
لم يدخله ليعلن توبةً ولا ليصلح ما أفسده في ليلة، بل لأنه لم يجد جهةً أخرى يطرقها. وقف عند طرف المكان مترددًا، كأنه يخاف أن يكون حضوره ثقيلاً على من كان يتهكم عليهم يومًا. لكنه فوجئ بأمرٍ بسيطٍ هزّه

من الداخل: وجوهٌ لا تعرف تاريخه، وأيدٍ تُقدِّم بلا منّة، وكلماتٌ قليلة صادقة. قال له أحدهم بهدوء:

«مرحبًا بك... أنت ابنُ بلدنا. تعال. تمكث عندنا أيامًا حتى تجد مخرجًا.»

اختلطت داخله مشاعر لا يعرف كيف يرتبها: فرحة الوصول، وخيبة الوعود، ويدُ عونٍ تأتي من الجهة التي كان يظنها قيدًا. كان قلبه يقبل المساعدة، وعقله يرفض معناها، كأنه يرى نفسه يتلقى النجدة من المكان الذي كان يتهرب منه. دخل بيتهم ضيفًا، وهو الذي كان يعلن أنه لا يحتاج أحدًا.

في الصباح اكتشف أن الحياة هنا لا تشبه الصورة التي صنعها في رأسه. ليست ساحةً مفتوحة للصوت، ولا مسرحًا دائمًا للكلام. الناس يستيقظون مبكرًا، يبدؤون يومهم بصلاة الفجر، ثم يخرجون إلى أعمالهم. يعودون متعبين، يهيئون طعامهم، يتبادلون حديثًا قصيرًا عن اليوم، ثم ينامون باكرًا ليستيقظوا من جديد. وفي نهاية الأسبوع يزورون أهلهم أو يجلسون مع أصدقاءٍ محدودين، ثم يعودون إلى إيقاع العمل كأنه قانونٌ لا يتوقف.

كان دُنْدُن غريبًا حتى عن الوقت. اعتاد سهر الليل والنوم حين يبدأ النهار، واعتاد أن يجعل الهاتف عالمه، وأن يحوّل الكلمات إلى معركةٍ لا تنتهي. أما هنا فالكلمات لها ثمنٌ سريع: في السكن، وفي الجيرة، وفي العمل، وفي نظرة الناس. هنا الاختلاف حاضر؛ أديانٌ وأفكارٌ كثيرة، ومؤمنون وغير مؤمنين، لكنهم يتعايشون لأنهم يحفظون حدود الاحترام ويلتزمون القانون. من يؤذي غيره لا يجد من يصفق له طويلًا، لأن التصفيق لا يدفع كلفة يوم، ولا يصلح أثر كلمةٍ جارحة.

شيئًا فشيئًا بدأ يفهم أن «الحرية» التي تخيّلها ليست بابًا بلا حراس، وأن العالم حين يكون منظمًا لا يسمح بأن يتحول الإنسان إلى أذى ثم يختبئ وراء شعار. ومع ذلك لم يكن هذا الفهم نضجًا كاملًا؛ كان صدمةً فقط، صدمةَ واقعٍ لا يقبل الوهم كما تقبله الشاشات.

وفي الليل، حين يهدأ البيت، يعود إلى هاتفه كمن يعود إلى عادته القديمة بحثًا عن أمانٍ سريع. يعيد الاتصال بمن وعدوه. لا جواب. أو جوابٌ باردٌ يختصره في دقائق. كان يشعر أن شيئًا في داخله يتفتت: لم يهاجر ليبني حياة، بل ليهرب من حدودٍ تذكّره بنفسه. وحين وصل وجد حدودًا من نوعٍ آخر:

حدود الواقع، وحدود القانون، وحدود حاجة الإنسان إلى أن يكون مقبولًا بين الناس لا حاضرًا بينهم كصوتٍ مؤذٍ.

ثم ظهر وجهٌ جديد للمحنة: لا لغة تسعفه في كل موقف، ولا عملٌ يُفتح بلا شروط، ولا وضعٌ واضحٌ يفتح الأبواب. كان يرى من آواه ينهض إلى عمله ثم يعود آخر النهار، بينما هو يزداد تعبًا وخجلًا وصمتًا. وكان سؤالٌ واحد يطارده دون أن يجرؤ على قوله بصوتٍ عالٍ:

إذا كانت «الحرية» ليست كما ظننت... فإلى ماذا هاجرتُ إذن؟

سكت البحر خلفه، وبَعُد البيت عنه، وخفَّت الأحلام التي حملها حتى صارت لا تحمله. لم تكن المشكلة أنه وصل إلى مكانٍ جديد، بل أنه وصل إلى نفسه عاريًا من الأعذار.

ومن هنا... بدأت الغربة الحقيقية.

الفصل الثالث عشر

وجهان في الغربة

حين صار الوقتُ قانونًا... وصارت "الدندنة" مخرجًا مؤقتًا



لم تمضِ أيامٌ كثيرة بعد تلك المواجهات حتى بدأ دُنْدُن يفهم—على نحوٍ مؤلم—أن الغربة ليست مكانًا يُعفي الإنسان من نفسه، بل مكانًا يعيد تقديمه إليها بصورةٍ أوضح. كان البيت الذي آواه في أيامه الأولى لا يزال قائمًا على لطفٍ لم يُغلق بابه تمامًا، لكنه لم يعد بيتًا يُشعره بالراحة؛ صار مرآةً يرى فيها عجزه كل صباح. كان الذين استضافوه يستيقظون باكرًا، يصلّون، يخرجون إلى أعمالهم، ويعودون آخر النهار محمّلين بتعبٍ صامتٍ شريف، بينما كان هو يستيقظ متأخرًا، كأن النهار لا يعنيه، وكأن الوقت لا يزال مرنًا كما كان في حياته السابقة. لم يوبّخوه توبيخًا صريحًا، لكن نصائحهم القليلة كانت كافية لتضعه أمام حقيقةٍ لا يريد مواجهتها: أن الحياة هنا لا تُبنى بالرغبة وحدها، بل بالانضباط، وأن اللغة التي لم يتعلمها بعد صارت جدارًا بينه وبين أي فرصةٍ حقيقية.

حاول أن يقاوم هذا الشعور بطريقته القديمة: الهروب إلى الخارج. صار يخرج إلى المقاهي، يجلس طويلًا دون هدف، يراقب الناس وهم يمرّون بثقةٍ يعرف أنها ليست صدفة، بل نتيجة سنواتٍ من البناء. وفي أحد تلك المقاهي تعرّف إلى فتاةٍ بدت له—في تلك اللحظة—كأنها استراحةٌ من كل ما

يثقل صدره. لم يكن بينهما لغةٌ مشتركة كاملة، لكن الهاتف سدّ الفراغ، والترجمة السريعة صنعت جسرًا هشًّا عبره إلى شعورٍ مؤقتٍ بأنه مقبول. كانت تستمع إليه دون أن تسأله عن ماضيه، وكانت تلك وحدها كافية ليشعر أنه وجد مساحةً لا تُحاسبه.

ومع مرور الأيام صار يقضي معها عطلات نهاية الأسبوع، يخرج، يمشي، يضحك أحيانًا، ويؤجل التفكير في كل ما ينتظره. لكنه حين تعود إلى نومها، كان يعود هو إلى هاتفه، إلى عالمه القديم، إلى البثوث التي لا تزال تستقبله بالتصفيق نفسه. هناك، لم يكن مهاجرًا فاشلًا ولا شابًا تائهًا، بل كان "صوتًا" يعرفه الناس. كان يفتح المايك، يتكلم بثقةٍ مصطنعة، يعيد الشبهات التي حفظها، ويضيف إليها نبرةً أقسى، كأنه يريد أن يقنع نفسه قبل أن يقنع الآخرين أنه لا يزال يملك السيطرة. وكانت الأصوات تأتيه كما اعتاد: تشجيع، ضحك، وتصفيق. وفي بعض اللحظات، حين يشتد صوته ويقسو، كان يسمع الكلمة التي صارت شعارًا بينهم، تخرج من أفواهٍ لا يعرف وجوهها: «أيوزك!» كانت تُقال كأنها ختمُ قبول، كأنها تقول له: أنت على الطريق، استمر.

كان ذلك التصفيق كافيًا ليمنحه وهم القوة، لكنه لم يكن كافيًا ليحميه من الواقع. ففي أحد الأيام، انكشف أمره. عرف بعض الذين آووه حقيقة ما يقوله في تلك البثوث. لم يواجهوه بعنف، بل واجهوه بحزنٍ كان أشد وقعًا من الغضب. قال له أحدهم بهدوء: «نحن لم نفتح بيتنا لك لتؤذي الناس بكلامك. نحن نحترمك، لكننا لا نستطيع أن نكون جزءًا من هذا الطريق.» حاول الإنكار، ثم حاول التبرير، ثم عاد—كعادته—إلى الشعار الذي يحميه من الاعتراف: «أنا حر.» لكن الحرية، هنا، لم تكن كافية لتفتح له بابًا. فهم، لأول مرة، أن بعض الأبواب تُغلق بهدوء، دون صراخ.

خرج من عندهم مثقلًا، وتوجه إلى الفتاة كأنها الملجأ الأخير. لكنه وجد هناك أيضًا بابًا لا يشبه ما عرفه. كانت قد سمعته في إحدى الليالي يصرخ في الهاتف، لم تفهم الكلمات، لكنها فهمت النبرة. قالت له ببساطةٍ صادقة: «أنت لست كما ظننت.» لم تكن جملةً طويلة، لكنها كانت كافية لتضعه خارج الصورة التي حاول رسمها لنفسه. أغلقت الباب، وبقي هو وحده. في تلك الليلة، عاد إلى هاتفه مرةً أخرى، كما لو كان آخر ما يملك. دخل البث، تكلم، ضحك، ورفع صوته أكثر من المعتاد. وحين انتهى، سمعها مرةً

أخرى، تأتيه من بعيد، مألوفة، دافئة، وخادعة: «أيوزك!» ابتسم، لكن الابتسامة هذه المرة لم تكن كاملة. لأنه، للمرة الأولى، بدأ يشعر أن الصوت الذي يمنحه قيمةً هناك... لا يمنحه مكانًا هنا.

وهكذا صار يعيش بوجهين: وجهٌ يحاول أن يبني مكانًا في عالمٍ حقيقي يطلب منه أن يتغير، ووجهٌ يعود كل ليلة إلى عالمٍ افتراضي يطلب منه أن يبقى كما هو. وبين الوجهين، كان يفقد شيئًا لا يُعوَّض بسهولة: نفسه التي لم تعد تعرف أين تنتمي.

ومن هنا... لم تعد الغربة مكانًا فقط، بل صارت حالةً يعيشها، حتى وهو بين الناس.

الفصل الرابع عشر

التلقين

حين يتحول الصوت إلى وظيفة... ويصير السؤال طريقةً للصيد



لم يكن دُنْدُن يتخيل أنه سيصل إلى يومٍ يرى فيه "الدندنة" وجهًا آخر: ليس هروبًا من القيود فقط، بل بابًا يُفتح له بشرط. بعد طرده من المأوى الأول، وبعد انغلاق الأبواب التي ظنها ملجأً، وجد نفسه في حضن جماعةٍ جديدة. لم يسألوه عن اللغة، ولا عن عمل، ولا عن خطةٍ تعيده إلى نفسه. كانوا يسألونه عن شيءٍ واحد: صوته.

في الأيام الأولى استقبلوه بترحيبٍ أكثر مما يستحقه حاله، ثم بدأوا يضعون له قواعد الحياة بينهم دون أن يعلنوا ذلك صراحة. لم يقولوا: "سنستعملك"، لكن كل شيءٍ كان يدل على المعنى. كان المكان مؤقتًا، والقبول مؤقتًا، والدفء الذي يعطونه له مرتبطٌ بأن يبقى كما يريدونه.

كانوا يتعاملون معه كأنه صفحةٌ بيضاء، لا ليرحموه، بل ليكتبوا عليه ما يشاؤون. قال له أحدهم، وهو يبتسم كمن يقدّم نصيحةً مجانية: «أنت عندك خامة جيدة... لكنك تحتاج طريقة.» لم يفهم دُنْدُن أول الأمر. كان يظن أنه "أفهم" لأن التصفيق القديم أوهمه بذلك. لكنه أدرك سريعًا أن التصفيق شيء، وأن امتلاك أدوات التأثير شيء آخر.

جلس معهم في ليالٍ طويلة، لا كصديقٍ متساوٍ، بل كتلميذٍ يُعاد تشكيله. لم يكونوا يسألونه: هل هذا صحيح؟ هل هذا منصف؟ كانوا يسألونه: هل هذا يُشعل؟ هل هذا يجرّ الناس إلى الحديث؟ هل هذا يفتح بابًا للعاطفة؟

ثم جاء الدرس الأكبر: النساء.

قالوا له بوضوحٍ لا يخلو من دهاء: «إذا أردت أن يكبر صوتك، فابدأ من القلوب. هناك جرحٌ واسع عند كثير من النساء، وبعضهن ينتظر من يضع اسمه على الألم. لا تدخل عليهن بمنطقٍ ثقيل. اقترب بهدوء. لا تقاطع. لا ترفع صوتك. أعطِهن كلمةً تشبه التعاطف. قل لهن: أنا أفهمكن. أنا معكن. ثم افتح الأسئلة التي تُربكهن وتُغضب غيرهن في الوقت نفسه.»

لم تكن نصيحةً عادية. كانت خطة صيدٍ كاملة، تُقدّم باسم "الحرية" و"الإنصاف".

كانوا يلقّنونه الجمل كما يلقّن المعلم تلميذه:

« قُل لها: أنتِ مظلومة... قُل لها: الدين قيّدكِ... قُل لها: تستحقين أكثر...»

ثم يضعون أمامه أسئلةً جاهزة لا تبدأ بالبحث، بل تنتهي بالحكم: لماذا يُسمح للرجل بأكثر من زوجة؟ ولماذا لا يكون العكس؟ لماذا قُسِّم الميراث بهذه

الطريقة؟ لماذا القِوامة؟ لماذا الحجاب؟ لماذا تُذكر المرأة في بعض النصوص بطريقةٍ يفهمها الناس على أنها انتقاص؟ ثم يضيفون ما هو أشد حساسية: الزواج المبكر، وما يُثار حول بعض الوقائع التاريخية، وأسماءٍ تُستعمل لتشغيل العاطفة لا لفهم السياق.

كانوا يقولون له: «لا تدخل في التفاصيل. التفاصيل تُضعف الأثر. خذ العنوان كما هو، وقدّمه كأنه فضيحة. ثم اترك الجمهور يكمل الباقي.»

وفي كل مرة كان دُنْدُن يحاول أن يعترض من داخله—لا لأنه يبحث عن الحق، بل لأنه يشعر أنه يُقاد— كانوا يسحبون الاعتراض إلى زاويةٍ أخرى: «أنت لا تهاجم أحدًا... أنت "توقظ" الناس. أنت فقط تفتح الأسئلة. دعهم هم يغضبون.»

وكان دُنْدُن يفهم اللعبة، ويقبلها في الوقت نفسه. لأنه صار يعرف أن حاجته إلى المأوى أكبر من قدرته على الرفض. كان يعرف—في لحظاتٍ صافية—أنه يُستعمل. لكنه كان يقول لنفسه: "على الأقل أنا لست وحدي." ثم يكتشف أن هذه الجملة هي القيد الحقيقي: أن يُقايض الإنسان وحدته بأن يصبح أداةً في يد من يملك المكان.

شيئًا فشيئًا صار يراقب نفسه وهو يتغير. لم يعد يتكلم كما كان يتكلم وحده في غرفته. صار يختار نبرةً أهدأ، ويصنع تعاطفًا محسوبًا، ويتجنب المقاطعة حين تكون المتصلة امرأة، ويزيد الاستفزاز حين يكون الطرف الآخر رجلًا غاضبًا. صار يعرف أين يضع السؤال، وكيف يتركه معلّقًا ليشتعل، ثم يتراجع خطوةً ليبدو بريئًا: "أنا فقط أسأل."

ومع كل خطوةٍ كان يفقد شيئًا صغيرًا من صدقه. لم يعد السؤال عنده طريقًا إلى المعنى، بل طريقًا إلى التصفيق. ولم تعد الحرية بحثًا عن الحق، بل غطاءً لطريقةٍ تُكسبه مكانًا مؤقتًا بين أناسٍ لا يفتحون الأبواب إلا لمن يخدم صورتهم.

في تلك الليالي فهم دُنْدُن شيئًا موجعًا: أنه كان يتوهم سابقًا أنه يقود، بينما هو كان يُقاد من بعيد. أما الآن فهو يُقاد من قريب، بوضوحٍ أشد، وبثمنٍ أعلى. لأن الخطأ هنا لا يكلّفه تعليقًا ساخرًا فقط، بل يكلّفه مأواه.

ومن هنا... لم تعد الدندنة مجرد صوتٍ في غرفة. صارت وظيفةً تُدار. وصار على دُنْدُن أن يثبت كل يومٍ أنه ما يزال صالحًا للدور.

الفصل الخامس عشر

معسكرُ الوهم

حين خرج دُنْدُن من التلقين... إلى المواجهة



لم يشعر دُنْدُن باللحظة التي انتقل فيها من مستمعٍ مضطرب إلى شيءٍ يشبه "جنديًا صغيرًا" في معسكرٍ لا يرفع رايةً واضحة. لم يعلن أحدٌ له رتبة، ولم يسلمه أحدٌ سلاحًا، لكن الأيام كانت تعيد تشكيله بصمت. صار يتحرك كما تُحرّكه الدوائر التي أحاطت به، لا كما يريد هو. وصار يحمل في ذاكرته جُمَلًا جاهزة أكثر مما يحمل فهمًا ثابتًا.

بعد "التلقين" لم يعد الأمر مجرد أفكار تُقال في جلسةٍ مغلقة. صار عليه أن يثبت أنه قادر على التنفيذ. كانوا يراقبون أثره لا صدقه، ويقيسون قيمته بما يتركه من اضطرابٍ في المكان. وإذا عاد بخيبةٍ أو صمتٍ طويل، فهم يدركون أن صوتًا بلا أثر لا ينفعهم.

بدأ دُنْدُن يطبّق. ينتقل من بثٍّ إلى بثّ، يدخل ثم يلقي سؤالًا مُلغّمًا، أو يضع عبارةً في منتصف الحديث كمن يلقي حجرًا في ماءٍ ساكن. كان يختار ما يضمن الجدل، ويترك التفاصيل، ويغادر سريعًا قبل أن يُسأل عن المصدر أو السياق. وحين يخرج، تصله رسائل قصيرة تشبه المديح: "أحسنت." "واصل." "هنا كنت أقوى." "هناك لو شددت أكثر لكان

أثرها أكبر.” كانت كلماتٍ تعطيه شعورًا مؤقتًا بأنه يتقدم، لكنها كانت ترفعه في عين نفسه أكثر مما تبنيه في حقيقة الأمر.

ومع مرور الوقت بدأ يشعر بضيقٍ جديد. لم يعد يرضيه أن يكون تابعًا. كان يريد أن يبدو أكبر من “جندي صغير”. أراد شبهةً أثقل، وسؤالًا لا يُردّ عليه بسهولة، وموضوعًا يشعر أنه إذا نطق به سيسكت من أمامه ولو لحظات. لم يكن هذا طلب علم، بل طلب هيبة؛ هيبةٍ يصنعها ارتباك الآخرين لا وضوحُه هو.

لهذا صار يقصد غرفًا مختلفة؛ غرفًا هادئة يتكلم أهلها عن القرآن والأخلاق ومعنى السكينة وأدب الحوار. لم يدخلها ليطلب ترتيبًا للمعنى، بل ليختبر قدرته على التشويش: أن يقطع السياق، وأن يزرع تهمةً في منتصف فكرةٍ جميلة، ثم يراقب كيف تتبدل الوجوه.

لكن تلك الغرف لم تكن ساحةً بلا ضوابط. لم يردّوا عليه بالصراخ، ولم ينزلقوا إلى السباب. كانوا يطلبون البرهان، ويعيدون قاعدة واحدة: إذا كان السؤال صادقًا فله باب، وإذا كانت الإساءة مقصودة فلها حدّ. وبأدبٍ

ثابتٍ يقطع الطريق على الضجيج، صاروا يضعون أمامه خيارًا واضحًا: إمّا أن يناقش باحترام وعلى ترتيب، أو يُغلق التشويش.

كان دُنْدُن يتوتر من هذا الهدوء، لأنه تعلّم أن يربح بالصدى لا بالحجة، وبالانفعال لا بالبناء. ومع ذلك واصل الاقتحام، لأن ما حُمّل على كتفه كان يريد أن يخرج، ولأن التصفيق الذي ينتظره في الخارج كان يطالبه دائمًا بالمزيد.

حتى جاءت الليلة التي تغيّر فيها الإيقاع.

دخل دُنْدُن بثًّا جديدًا، وألقى عباراته المعتادة. لم يكد يتمّها حتى جاءه صوت صاحب البثّ بهدوءٍ واضح:

«يا أخي... إن أردتَ سؤالًا فاسأل بأدب، وإن أردتَ تشويشًا فلن نتركه يملأ المكان.» ثم أضاف آخر، بصرامةٍ بلا قسوة:

«ثلاثة خيارات: إمّا تصمت، أو تُحظر، أو تصعد ونتحاور.»

توقف دُنْدُن لحظة. لأول مرةٍ يتردد حقًّا. فهو لم يتعلم النقاش؛ تعلم الإلقاء ثم الهروب. تعلم أن يقذف سؤالًا ثم يختبئ خلف الضجيج. تعلم أن يربح بالتصفيق... لا بالمعنى.

لكن هنا لا تصفيق. ولا "طبطبة". هنا وجهٌ لا يشتري الصوت، ولا يخافه.
في تلك اللحظة ظهرت الحقيقة بوضوحٍ جارح: ما كان يحمله دُنْدُن ليس علمًا، ولا بحثًا، ولا شجاعة. كان عباراتٍ قُدِّمت له جاهزة، ثم دُفع بها إلى ساحةٍ لا يعرف قوانينها.

والآن يقف—لأول مرة—أمام امتحانٍ لا ينفع فيه الهروب.

الفصل السادس عشر

الاصطدام

حين يُستعمل النصّ ليُشعل... لا ليُفهِم

وقف دُنْدُن أمام الخيارات الثلاثة التي وُضعت أمامه: أن يصمت، أو يُحظر، أو يصعد للنقاش. ولأول مرة اهتزّ داخله شيءٌ لم يعرف اسمه. هل هو خوف؟ أم خجل؟ أم إدراكٌ مفاجئ أنه طوال هذه المدة لم يكن يناقش... بل كان يهرب؟

كانت الرسائل تأتيه بسرعة من رفاقه في الظلال: اصعد... لكن لا تناقش. اقذف الأسئلة وغيّر الموضوع. لا تدخل في التفاصيل. قل: عندي أسئلة... ثم انسحب. كانوا يريدونه حاضرًا بالصوت لا بالبرهان، لأن أول نقاشٍ مرتب يهدد الصورة التي صنعوها له.

تردد لحظةً، ثم ضغط زرّ الصعود.

ظهر اسمه. ظهر صوته. لكنه لم يبدأ بتحيةٍ كاملة كما يبدأ الناس عادة. التقط صاحب البث ذلك، ولم يرفع عليه صراخًا، بل قال بهدوءٍ يضع الأشياء في مكانها:

«أهلاً بك. هل كلمة السلام ثقيلة عليك؟»

حاول دُنْدُن أن يدفع الحديث بعيدًا:

«دعك من هذه التفاصيل... أنا جئت بأسئلة.»

قال الرجل:

«قل لي إذن: هل جئت لتسأل أم جئت لتشوش؟ إن كان سؤالًا فاختر واحدًا، وإن كان ضجيجًا فلن يفيدك هذا المكان.»

اندفع دُنْدُن إلى عادته القديمة. قذف عناوين كبيرة متلاحقة عن العدل والتاريخ والأحكام، وانتقل من بابٍ إلى بابٍ كأنه يرمي في الهواء ليرى أي شرارةٍ تشتعل أولًا. ثم سكت قليلًا كمن ينتظر الصدى.

قطع صاحب البث الفوضى بسؤالٍ واحد:

«أنت تريد فهمًا... أم تريد انتصارًا؟»

ساد صمتٌ قصير. لأن السؤال لم يهاجم دُنْدُن، بل كشف طريقته. وتحت هذا السؤال شعر لأول مرة أن الضجيج لا يحميه هنا، وأن التصفيق الذي اعتاد أن يربحه خارجًا لا يصلح داخل مكانٍ يطلب ترتيبًا.

في اليوم التالي عاد دُنْدُن إلى البث نفسه، وهو يحمل العناوين ذاتها. كان يريد أن يستعيد إيقاعه القديم: قذفٌ سريع، ضجيجٌ سريع، ثم انسحاب.

لكن الرجل أوقفه قبل أن يبدأ:

«اهدأ يا دُنْدُن... اختر شبهة واحدة. أكبر شبهة عندك... ونبدأ بها.»

تردد. كانت الكثرة ملجأه الدائم، أما "واحدة" فهي امتحان. وفي التعليقات اشتعلت اقتراحات متسارعة، حتى استقرّوا على العبارة التي ستُشعل كثيرًا من الغرف.

قال بصوتٍ مرتفع كمن يرفع لافتة لا كمن يفتح سؤالًا:

«عندي أن القرآن يبيح الزواج بالطفلة... يقول: ﴿وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ﴾... يعني لم تأتها الدورة بعد. هذا في القرآن، أليس كذلك؟»

لم يرد الرجل بانفعال. قال فقط:

«جيد. الآن قلت شيئًا محددًا. قبل الحكم... نقرأ النص كاملًا. لأن نصف النص يصنع نصف فهم، وأحيانًا يصنع فهمًا مقلوبًا.» ثم تلا الآية كاملة:

﴿وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ (سورة الطلاق: 4)

ترك لحظةً للنص، ثم قال بنبرةٍ هادئة تقطع الخلط من جذره:

«ركّز يا دُنْدُن: هذه الآية في سورة الطلاق، وسياقها كله عن العِدّة بعد وقوع الطلاق: ﴿فَعِدَّتُهُنَّ...﴾. تتكلم عن تنظيم ما بعد الانفصال وحفظ الحقوق، لا عن إنشاء زواج ولا دعوة إليه.»

ثم أضاف وهو يضبط المعنى دون خطبة:

«والزواج في الإسلام عقدٌ له شروط، ومن أصوله الرضا. وقد صحّ: "لا تُنكَحُ البكرُ حتى تُستأذن". ثم القاعدة الجامعة: لا ضرر ولا ضرار. فلا يُشرع ما يترتب عليه ظلمٌ أو أذى.»

ولم يكتفِ بذلك، بل كشف أصل الخدعة:

«المشكلة ليست في النص... المشكلة في اقتطاع عبارة من باب العِدّة، ثم سحبها إلى باب الزواج، وإلزامها بمعنى لم تقله.»

تحركت التعليقات، لكنها فقدت شيئًا من يقينها. لأن العنوان وحده لم يعد يكفي. أما دُنْدُن فظل ساكتًا أكثر مما اعتاد. لم يكن مقتنعًا بالكامل، لكنه لم يجد باب السخرية سهلًا كما كان. كان يشعر فقط أن الأرض التي يقف عليها ليست صلبة كما ظن، وأن "الكثرة" التي كانت تحميه من مواجهة سؤالٍ واحد لم تعد تنفع هنا.

قال صاحب البث في النهاية:

«إن أردت أن نكمل، نكمل بالطريقة نفسها: سؤال واحد... ثم جواب واحد. لأن الذي يريد أن يفهم لا يرمي خمس شبهات ثم يهرب.»

خرج دُنْدُن بعد دقائق. أغلق الشاشة... ثم فتحها من جديد. كان الانفعال يريد أن يعود، لكن شيئًا في الداخل صار يتردد قبل أن يكتب. ولأول مرة لم يكن تردده ضعفًا خالصًا.

كان ترددًا يشبه بداية الوعي بأن الطريق الذي اعتاد أن يختصر به كل شيء... لم يعد يعمل... ومن هنا... يشتدّ الامتحان.

الفصل السابع عشر

ميزانُ الزمن

حين تُحاكَمُ الوقائعُ بغير سياقها



سكتت الغرفة لحظاتٍ بعد أن هدأت شبهة الآية. كان الصمت يشبه فراغًا قصيرًا بين موجتين. لكن التعليقات لم تترك لدُنْدُن فرصةً ليلتقط أنفاسه؛ دفعتْه إلى عنوانٍ آخر اعتادوا أن يجعلوه "القاضية".

رفع دُنْدُن صوته متشبثًا بما بقي له من ضجيجٍ يحتمي به:

«حسنًا... دعك من الآية. نبيُّكم تزوّج عائشة وهي صغيرة. كيف تبرّر هذا؟»

نظر صاحب البث إلى الشاشة نظرةً طويلة. لم تكن نظرة غضب، بل نظرة رجلٍ يعرف أن هذه ليست قصةً تُرمى لتُشعل، بل قضيةٌ يختلّ معها ميزان التفكير إذا ضاعت قواعده. ثم قال بهدوءٍ ثابت:

«سنمشي كما اتفقنا: سؤالٌ واحد، وجوابٌ واحد، ولا مقاطعة.»

قال دُنْدُن بسرعة:

«تمام... لكن أعطني مصادر.»

أجابه الرجل دون التفاف:

«سأذكر لك عناوين واضحة، ثم نرجع للأصل: لا قيمة للمصدر إن كنا نحاكم الواقعة بلا ميزانٍ منصف. أول خطأ هنا أن نحاكم زمنًا كاملًا بأدوات

زمنٍ واحد، ثم نُعلن الحكم وكأنه نتيجة طبيعية من أول عنوان. هذا ظلمٌ للتاريخ، وظلمٌ للعقل.»

ثم وضع أمامه سؤالًا منهجيًا لا يُهرب منه:

«قل لي: أين ترى الإشكال؟ هل تزعم أن الواقعة كانت "فضيحة" في زمانها عند قومها؟ أم تزعم أنها خطأٌ مطلق لا يستقيم في أي سياق؟ لأنك إن لم تحدد موضع الاعتراض، فأنت لا تناقش واقعةً بقدر ما تصنع صدمةً لغرض الصدمة.»

سكنت التعليقات قليلًا.

تابع صاحب البث:

«المجتمعات عبر التاريخ لم تكن تقيس النضج برقمٍ مجرد كما نفعل اليوم وحده، بل كان معيارها مزيجًا من البلوغ والاستعداد والواقع الاجتماعي. هذا لا يعني أن كل عرفٍ صحيح، لكنه يعني قاعدةً بسيطة: افهم السياق قبل أن تحكم. وحتى العلوم الطبية والاجتماعية تذكر تفاوت سن البلوغ والنضج باختلاف البيئة والتغذية والظروف المعيشية، فلا تُختزل المسألة في رقمٍ واحدٍ يُفرَض على كل العصور.»

ثم قال بهدوءٍ حاسم:

«والآن إلى ما طلبتَ: المصادر.»

توقف لحظة، ثم بدأ من نقطةٍ تاريخية مهمّة:

«تذكر مصادر السيرة أن عائشة رضي الله عنها كانت مخطوبة قبل ذلك لجبير بن مطعم، ثم فُسخت الخطبة، ثم تمّ الزواج بعد ذلك. هذا مرويّ في كتب أهل السِّيَر والتاريخ؛ من ذلك: الطبقات الكبرى لابن سعد، وتُذكر أصول القصة في كتب السيرة والتاريخ العام. هذه ليست "ترقيعًا" كما تُقال في الغرف، بل خبرٌ معروفٌ في مادته التاريخية.»

تحرك دُنْدُن بعصبية:

«يعني لأنهم كانوا يفعلون ذلك صار صحيحًا؟»

أجابه الرجل فورًا دون دفاعٍ عاطفي:

«لا. أنا لا أقول إن العرف يحوّل الخطأ صوابًا. أنا أقول: إن كنتَ تزعم أنها كانت في زمانها فضيحةً أخلاقية "غير مقبولة"، فدلّني على الاعتراض في زمانها. النبي ﷺ كان له خصوم يترصدون أدق ثغرة للطعن؛ اتهموه بكل شيء، وحاربوه بكل وسيلة. فلو كانت هذه الواقعة في عرفهم فضيحةً كما

يزوّج بعضهم اليوم، هل كانوا سيسكتون عنها؟ أين نقلٌ صريح ثابت يدل على أنهم جعلوها موضع طعنٍ أخلاقي عليه؟»

ساد صمتٌ لحظة، لأن السؤال هنا لا يحتاج زخرفة.

ثم أكمل صاحب البث وهو يعيد للقضية ميزانها الإنساني:

«ولا تحاكم حياة إنسان كاملة بصورةٍ مرسومة في تعليق. عائشة رضي الله عنها عاشت بعد النبي ﷺ سنين طويلة، وروت علمًا كثيرًا، وبقيت مرجعًا معروفًا. هذا ثابت في كتب الحديث والسير، وهو وحده يكسر صورة "الضحية المكسورة" التي يُراد تسويقها دون دليل.»

ثم قرّب المعنى من النص القرآني حتى لا يتحول النقاش إلى عاطفةٍ بلا برهان:

«ولمقام أمهات المؤمنين حكمٌ مخصوص، قال الله تعالى: ﴿وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا﴾. وقال سبحانه: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾. هذه النصوص تضع المقام في إطار الرسالة والعلم، لا في إطار التهويل الذي تحبه العناوين السريعة.»

ثم فتح نافذةً تاريخية عامة تمنع القارئ من وهم الاستثناء:

«ولكي لا تُصنع لك صورة تقول: هذا "استثناء ديني" خارج التاريخ... انظر إلى القوانين القديمة نفسها: في القانون الروماني كانت هناك أحكام تُجيز زواج الفتاة في سن مبكرة مقارنة بمعايير اليوم، وكذلك في تقاليد قانون الكنيسة في أوروبا الوسيطة ذُكر حدٌّ أدنى قريب من ذلك. هذه إشارات تاريخية موثقة في مصادر القانون القديم وتاريخه. وذكرُها هنا ليس لتقديس الماضي، بل لإبطال الخدعة التي توهمك أن الأمر حالةٌ خاصة بدينٍ بعينه خارج سياق البشر.»

قال دُنْدُن بصوتٍ أقل حدّة:

«حسناً... لكن أعطني أسماء كتب واضحة.»

قال صاحب البث بهدوء:

«أعطيك نماذج واضحة داخل موضوعنا:

في السيرة: الطبقات الكبرى لابن سعد، وكتب السيرة المعروفة مثل سيرة ابن هشام، وكتب التاريخ مثل تاريخ الطبري؛ ستجد فيها مادّةً تاريخية تتصل بهذه المرحلة.

وفي مقام أمهات المؤمنين: النص القرآني الذي قرأناه هو الأصل، وتفصيل دلالته يُذكر في كتب التفسير المعروفة.

أما أمثلة القوانين القديمة فأصلها في كتب تاريخ القانون الروماني وتاريخ القانون الكنسي، ويمكن أن نضعها لك ببياناتها الكاملة في ملحق التوثيق حتى لا يطول بنا المجلس.»

ثم ختم بقاعدةٍ تضبط طريق البحث:

«لكن انتبه: ليست المشكلة نقص المصادر وحده؛ المشكلة أنك تبدأ بحكمٍ جاهز ثم تبحث عما يخدمه. الباحث يبدأ بسؤالٍ صادق، ثم يجمع الأدلة، ثم يزن. لا يبدأ بخلاصةٍ ثم يفتش عن تبرير.»

وسأل السؤال الذي صار امتحانًا لطريق دُنْدُن كله:

«هل أنت طالبُ حق... أم طالبُ انتصار؟»

سكت دُنْدُن طويلًا، ثم قال بصوتٍ أخف:

«نسمع... لكن نمشي شبهة شبهة.»

ولأول مرة بدا طلبه شبيهًا بطلب من يريد أن يبقى في الغرفة، لا من يريد أن يرمي عنوانًا ثم يهرب.

الفصل الثامن عشر

حين يسقط الستار ردّةُ الفعل حين لا تكفي الطبطبة



لم يكن دُنْدُن يتوقع أن تكلّفه دقائق الصمت كل هذا الثمن. خرج من البثّ وهو يشعر أن شيئًا تغيّر داخله، لا لأن جوابًا سمعه أنهى الأسئلة، بل لأن طريقة السؤال نفسها انكشفت أمامه. لأول مرة وُضع في زاويةٍ لا تنفع فيها الكثرة، ولا يفيده أن يرمي عنوانًا ثم يختفي. كان عليه أن يبقى.

لكن ما إن عاد إلى من يسكن معهم حتى سقط عليه ما هو أثقل من تعليقٍ عابر. لم يكن هؤلاء أناسًا آوَوه بدافع رحمة، ولا رفقةً تبحث عن هدوء، بل جماعةٌ صاخبة تعيش على الضجيج، وتفهم "النجاح" بميزانٍ واحد: أن تشتعل الغرفة، وأن يبقى الناس في حالة غضبٍ مستمر.

كان البيت مزدحمًا بأصواتٍ متداخلة، وكلماتٍ حادة تُقال بلا حرج. ما إن دخل دُنْدُن حتى استقبلوه بما يشبه التوبيخ، لا لأنه أخطأ في معلومة، بل لأنه خالف "الخطة".

قال أحدهم وهو يرمي هاتفه على الطاولة كمن يعرض دليلًا:

«ما هذا يا دُنْدُن؟ أنت مهزلة. أضحكتَ علينا الناس.»

وقال آخر، بلهجةٍ أقسى:

«أنت تركته يتكلم! تركته يرتّب كلامه! نحن لم نربِّك على النقاش. نحن قلنا لك: لا تناقش.»

حاول دُنْدُن أن يردّ، لكنه لم يجد جملةً متماسكة. كان داخله لا يزال تحت أثر تلك الليلة، بينما هم لا يرون إلا "النتيجة" على الشاشة: لحظة صمتٍ بدت لهم هزيمة.

تقدم ثالث وكأنه يشرح درسًا يتكرر:

«اسمع يا دُنْدُن. القاعدة بسيطة. إذا دخلت بثًّا، لا تمكّن صاحبَه من نصف جواب. إن بدأ يردّ عليك، اقفز فورًا إلى شبهة أخرى. لا تُبقِه في نقطة واحدة حتى يثبتها. انتقل بسرعة: من بابٍ إلى باب، ومن قصةٍ إلى قصة، حتى لا يستقر المعنى في ذهن الناس.»

ثم قالها بوضوحٍ جارح:

«ناقش العامة إن شئت، لأنهم لا يملكون أدوات الرد. أما إذا وجدت شخصًا يعرف كيف يفكك الشبهة، فلا تناقشه. لا تعطِه فرصة. انتقل بسرعة. هذا هو "الأسلوب" الذي نعلّمك إياه.»

جلس دُنْدُن صامتًا. كان يسمع للمرة الأولى اعترافًا صريحًا بما كان يحدث في الظل: أن الهدف ليس فهمًا ولا بحثًا، بل إدارة مشهد. وأن الشبهة ليست سؤالًا يطلب جوابًا، بل أداة تُلقى لإحداث أثرٍ نفسي، ثم تُستبدل بأداة أخرى قبل أن تُفهم الأولى.

قال أحدهم وهو يلوّح بيده كأنه يرسم خريطة طريق:

«وتذكّر ما لقّناك: باب المرأة هو الأسرع. هناك تعاطفٌ سريع، وهناك تجاربُ مؤلمة، وهناك غضبٌ حاضر. اقترب من النساء بالكلام اللين، أظهر أنك "تنصفهن"، ثم ارمِ العناوين. اجعلها تشعر أنها مظلومة، وأنك أنت صوتها. إذا اشتعلت المشاعر، صار التحقق آخر ما يفكر فيه الناس.»

لم يكن الكلام وعظًا، بل كان تدريبًا. تدريبٌ على نقل السؤال من مستوى البرهان إلى مستوى الانفعال، ومن طلب الحقيقة إلى صناعة الاصطفاف.

حاول دُنْدُن أن يتمسك بشيءٍ صغير من كرامته فقال:

«لكن... أنا أريد أن أفهم. لا أريد أن أبقى أكرر.»

قاطعه أحدهم ببرودٍ قاطع:

«الفهم؟ هذا ليس مكان الفهم. إذا أردت أن تفهم فاقرأ وحدك. أما هنا فالمطلوب أن يكون لك أثر. أنت تُؤوَى هنا لأن لك وظيفة. إن لم تؤدِّها... فماذا سنفعل بك؟»

لم تكن جملة تهديدٍ صريحة، لكنها حملت معناها كاملًا. المكان ليس بيتًا طبيعيًا، بل مساحةٌ مشروطة. القبول فيها مرتبط بالدور. والدفء فيها ليس مجانيًا، بل له ثمن: أن يبقى الصوت على الصورة التي يريدونها.

في تلك الليلة دخل دُنْدُن غرفته وهو يشعر أن "التحالف" الذي ظنه سندًا صار قيدًا. لم يعد الضغط يأتيه من خصمٍ في بثٍّ مباشر فقط، بل صار يأتيه من داخل البيت نفسه: أن يُعاد تشكيله كل ليلة ليكون أداةً أكثر طاعة.

فتح هاتفه، ثم أغلقه. عاد ففتحه، ثم توقف قبل أن يكتب. كان يسمع في داخله سؤالًا لا يجرؤ على قوله لهم: إذا كانت الطريقة قائمة على القفز قبل اكتمال الجواب، فمتى سأعرف الحقيقة؟ وإذا كانت "الشبهات" تُستعمل كحجارةٍ لإشعال الناس، فأين يذهب الإنسان الذي يرميها حين يهدأ الضجيج؟

لم يجد جوابًا. لكنه وجد شعورًا جديدًا يتسلل إليه ببطء: أن الشبهة التي تُلقى بلا بحثٍ لا تجرح الدين وحده، بل تجرح صاحبها أيضًا. لأنها تحوّله من باحثٍ محتمل إلى أداة، ومن إنسانٍ له طريق إلى مجرد صوتٍ مطلوبٍ منه أن يشتعل.

ومن هنا بدأ الامتحان الحقيقي: ليس امتحان الردود، بل امتحان الصدق. هل يستطيع دُنْدُن أن يخرج من دور "المُلقي" إلى دور "الباحث"؟ أم أن الخوف من فقدان المأوى سيجعله يختار الضجيج مرةً أخرى؟

الفصل التاسع عشر

بين صوتين

حين يصبح النقاش بابًا... وتصبح الأسرة خبرًا لا تعليقًا



لم تكن المفاجأة في شبهةٍ سقطت، ولا في جوابٍ بدا قويًا، بل في شيءٍ أبسط: أن دُنْدُن سكت. سكت على الهواء، وانتظر. ومن بعيدٍ جدًا، في بيتٍ لم يعد يملك إلا الصبر، رأت الأسرة ذلك الصمت كما يرى الغريق خشبةً على سطح الماء.

شاهد الأب البث كاملًا. لم يشاهد "مناظرة" فقط، بل شاهد لحظةً لم يتخيلها منذ زمن: ابنه يتكلم دون سبّ، ويتوقف دون أن يفرّ، ويُترك له بابٌ ليعود إن أراد. وتذكّر الأب فورًا كلام الشيخ القديم: حين يتجاوز الأمر حدود السؤال إلى الإيذاء، لا ينفع الصراخ، بل يحتاج الأمر إلى من يعرف هذا الباب ويُطفئ الانفعال قبل أن يطفئ الشبهة.

وفي تلك الليلة اتصل الأب بصاحب البث.

كان الاتصال قصيرًا في عباراته، طويلًا في معناه. قال بصوتٍ منهك يمتزج فيه الرجاء بالحياء:

«السلام عليكم... يا ولدي. أنا والد دُنْدُن.»

ساد صمتٌ صغير في الطرف الآخر، ثم رد صاحب البث بهدوء:

«وعليكم السلام. تفضل يا عمّي.»

قال الأب:

«شاهدنا البث كله. ورأيناه يسكت لأول مرة... لا يسبّ ولا يستهزئ. نحن لا نبحث عن فضيحة ولا عن انتصار. نبحث عن ابننا.»

كان صوت الأم قريبًا، كأنه دعاءٌ لا يريد أن يتحول إلى بكاء:

«ساعده يا بني... رأيناه ينصت لأول مرة.»

لم يطل صاحب البث الكلام. لم يعد الأمر عنده شأن شاشةٍ وتعليقات، بل صار بيتًا يتألم. قال لهم بصدقٍ هادئ:

«نحن لا نملك عصًا سحرية. لكننا نضع قاعدة واحدة لا نساوم عليها: احترام الإنسان قبل احترام الحجة. من جاء يسأل بأدبٍ نأخذ بيده، ومن جاء يسبّ ويهين نغلق عليه الباب حتى يهدأ. إن شاء الله يكون هذا بداية خير.»

أغلق الأب الهاتف وهو يشعر بشيءٍ لم يشعر به منذ زمن: أن الطريق قد لا يكون مسدودًا تمامًا. لم يفهم تفاصيل ما يعيشه ابنه في الغربة، ولا عرف أنه بين من يستغلون صوته، لكنه تعلّق بعلامةٍ واحدة: أن دُنْدُن بدأ يهدأ.

ثم اتصل الأب بابنه.

لم يكن الاتصال عتابًا ولا محاكمة. قال له بهدوءٍ يختصر سنوات من القلق:

«يا بني... من حقك أن تسأل، لكن اسأل بأدب. ناقش بهدوء. إن أردت الحق فاسأل من هو أعلم. رأيناك اليوم تنتظر الجواب... وهذا خير.»

سكت دُنْدُن في الطرف الآخر. لم يُخبرهم أين يقيم، ولا من يحيط به، ولا كم هو مشدود بين وجهين. قال جملة قصيرة كأنه يخشى أن يسمعها أحد قريب:

«حاضر يا أبي.»

كان هذا "الحاضر" صغيرًا، لكنه صادق في لحظته. لأن دُنْدُن—على الرغم من كل شيء—بدأ يكتشف أن الهدوء ليس ضعفًا، وأن السبّ ليس قوة، وأن احترام الخصم لا يعني التسليم له، بل يعني أن الإنسان لا يخسر نفسه وهو يبحث عن جواب.

في الأيام التالية تغيرت عادته قليلًا. صار يستمع أكثر مما يتكلم. لا لأنه صار باحثًا كاملًا، بل لأن الطريق الذي كان يعرفه لم يعد ينفع في الأماكن التي تُحسن الرد. وكان في الاستماع—حتى لو كان بدافع "التعلم للخصومة"—خطوة أولى لم يعرفها من قبل.

وفي إحدى الليالي سمع من حوله جملةً بدت عادية، لكنها كانت قنطرة إلى القادم:

«القادم ليس شبهةً هنا وشبهةً هناك. القادم مناظرة كبرى... عن الأخلاق. هناك سننهي الأمر.»

لم يعلّق دُنْدُن. لكنه أحس أن المواجهة القادمة مختلفة. فالأخلاق ليست عنوانًا سهلًا يُلقى ثم يُنسى. هي سؤالٌ لا يهرب منه الإنسان إذا طالت الإقامة في نفسه.

وفي تلك الوقفة القصيرة... أحسّ دُنْدُن أن ما ينتظره ليس ردًّا جديدًا، بل امتحانًا لمصدر الأحكام نفسها.

الفصل العشرون

حين بدأت الشبهات تتساقط مَن مرحلة الجدل... إلى مرحلة العلاج



عاد صاحب البث هذه المرة بلا ضيف، وبلا صعودٍ مفاجئ، وبلا سباقٍ في العناوين. بدا كأنه اختار أن يخرج الحوار من فوضى "من يغلب من" إلى هدوء "كيف نفهم".

قال في البداية إن المرحلة ليست مناظرةً بالمعنى المتعارف، بل محاولة لترتيب الأسئلة: تفكيك شبهة واحدة في كل مرة، وردّها إلى أصلها، حتى لا يبقى المشاهد أسيرَ الانفعال. لم يطلب من أحد أن يصعد، ولم يلاحق التعليقات. أراد أن يضع معيارًا: الشبهة تُناقَش بقدرها، لا بضجيجها.

بدأ بما يتكرر كثيرًا: عبارة "الإسلام انتشر بالسيف". لم يدخل في خطابةٍ طويلة، بل وضع سؤالًا بسيطًا: إن كان السيف هو القاعدة، فكيف دخل الإسلام إلى مناطق واسعة لم تصلها جيوشٌ عربية أصلًا؟ ثم شرح الفكرة بهدوء: انتشارٌ كبير وقع عبر التجارة والاختلاط والأمانة والهجرة، حيث لم تكن الجيوش هي الوسيلة الأساس. وبيّن أن الخلط يقع أحيانًا بين وجود صراعاتٍ سياسية في التاريخ وبين الحكم الشرعي المتعلق بحرية الاعتقاد، وأن التاريخ لا يُقرأ في جملة واحدة.

ثم انتقل إلى بابٍ حساس يتصل بالرقّ والواقع الاجتماعي القديم. لم ينكر وجوده في التاريخ، لكنه وضعه في سياقه: نظامٌ عالمي سابق للإسلام عرفته حضارات كثيرة. ثم بيّن أن السؤال المنهجي هو: كيف تعامل التشريع مع واقعٍ قائم؟ وهل فتح طريقًا لتوسيعه أم حدّه وضيّق أبوابه وفتح مسالك التحرير؟ وأوضح أن كثيرًا من الأحكام هنا لا تُفهم إلا عند التفريق بين "واقعٍ ورثته البشرية" وبين "مسار إصلاحٍ يُقصد به تقليل الضرر تدريجيًا وحفظ الحقوق".

ثم تطرق إلى مسألة تتكرر في الجدل العام حول "عقوبة الردة"، وحرص على التفريق بين تبدّل القناعة الفردية وبين حالاتٍ تتصل بالأمن العام زمن الصراع، وكيف أن النصوص تُفهم ضمن شروط القضاء والسياق التاريخي، لا باعتبارها أداة تُستعمل لإثارة الخوف أو التهويل. وكان جوهر الرسالة هنا: أن الحكم الفقهي لا يُقتطع من منظومته، ولا يُقرأ بمعزل عن المقاصد والضوابط.

وختم بمثال يكثر تداوله: "مكانة المرأة". لم يجادل بعاطفةٍ مضادة، بل طرح سؤالًا: ما صورة المرأة في كثير من البيئات القديمة قبل إصلاحات

الرسالات والتشريعات؟ ثم أشار إلى حقائق عامة: أن المرأة عاشت في مجتمعات كثيرة تحت سلطاتٍ قاسية تُنتقص فيها حقوقها الأساسية. ثم بيّن أن الإسلام نقلها إلى وضعٍ تُعتبر فيه ذمتها المالية، وحقها في الميراث، وحقها في القبول والرفض، ومسؤولية النفقة على الزوج، وأن كثيرًا من الاعتراضات اليوم تنشأ من انتزاع حكمٍ واحد من منظومة كاملة، أو من تحميل الدين أخطاء البشر لا نصوصه ومقاصده.

لم يكن أثر الحلقة في رفع الصوت، بل في ترتيب الكلام. كثيرون كانوا يسمعون لأول مرة جوابًا يفرّق بين الحكم والواقع، وبين النص والسياق، وبين الخطأ البشري والمبدأ. ولهذا بدأ بعض المتابعين يطلبون حوارًا أوسع وأعمق، لا لأن كل الأسئلة انتهت، بل لأن طريقة النظر تغيرت: صاروا يطلبون منهجًا لا عناوين.

ومع هذا التحول ظهر اقتراحٌ جديد في التعليقات وعلى المنصات: أن تُنقل النقاشات من تفصيل الشبهات المتفرقة إلى سؤالٍ أعمّ يتكرر وراءها: ما مصدر الحكم الأخلاقي أصلًا؟ ومن الذي يملك أن يقول: هذا حسن وهذا قبيح؟

في تلك اللحظة قُدمت دعوة إلى مناظرة بعنوان "الأخلاق". لم يعد الحديث عن شبهةٍ واحدة، بل عن الميزان الذي تُوزن به الشبهات كلها. قبل صاحب البث بشرطٍ واضح: أن يكون الحوار منصفًا، وأن تُعرَّف المرجعية الأخلاقية للطرف الآخر كما يعرّفها هو، ثم تُناقش داخل حدودها دون خلط.

ومن بعيد كان دُنْدُن يراقب. ولأول مرة أحس أن القادم ليس عنوانًا يُرمى ثم يُنسى، بل سؤالٌ لا يهرب منه الإنسان: من أين نأخذ أحكامنا الأخلاقية حين نختلف؟

ومن هنا... بدأت ملامح المواجهة الكبرى تقترب.

الفصل الحادي والعشرون
قبل أن يبدأ الميزان

لم يعد البث كما كان. لم يكن الفرق في العنوان وحده، ولا في الضيف الذي يصعد أو لا يصعد، بل في سؤالٍ واحد بدأ يزحف من أطراف التعليقات إلى قلب المشهد. سؤالٌ بسيط في صياغته، ثقيل في أثره، لا يحتاج صاحبه أن يكون متبحّرًا في علم الكلام كي يطرحه، لكنه يجبر من يُسأل عليه أن يفكر طويلًا قبل أن يجيب.

كان صاحب البث يقول لهم بهدوءٍ شبه ثابت: سأجيبك عن الشبهات شبهةً شبهة، لكن بشرط واحد. لدي سؤالٌ لم أجد أحدًا منكم أجابني عنه إلى الآن، وسيبقى قائمًا حتى أسمع جوابًا واضحًا: ما مرجعيتكم الأخلاقية؟ كيف تحكمون على شيء أنه حسن أو قبيح قبل أن تجعلوا من اعتراضكم على الدين اعتراضًا "أخلاقيًا"؟

في البداية كان السؤال يبدو للسامعين وكأنه مجرد استفزازٍ ذكي، ثم بدأوا يلاحظون أنه ليس كذلك. فالشبهات نفسها، على كثرتها، كانت تتغذّى من حكمٍ أخلاقي مسبق: هذا ظلم، وهذا قسوة، وهذا لا يليق بالإنسان. فإذا سُئل الطرف الآخر: من أين جاء هذا الحكم؟ صار عليه أن يذكر ميزانه قبل أن يحاكم به غيره.

كان بعضهم يجيب سريعًا: العقل. فيرد صاحب البث بسؤالٍ لا يرفع صوته، لكنه يفتح حفرةً تحت الجواب: أيّ عقل تقصدون؟ وهل تصبح كل العقول مرجعًا ملزمًا يُحكَم به على الحسن والقبيح؟

ثم كان يقرّب الفكرة بمثالٍ يفهمه العامة دون أن يتحول إلى سردٍ مرعب: لو أن إنسانًا اعتدى على الناس في مكانٍ عام، ثم سُئل أمام القضاء: لماذا فعلت؟ فقال: "عقلي دلّني". هل تتحول هذه العبارة إلى تبريرٍ أخلاقي؟ وهل يصبح ما أملاه عليه عقله "حسنًا" لمجرد أنه خرج من داخله؟ وإن قلتم: لا، فهذا عقلٌ منحرف، عاد السؤال بصورةٍ أخرى: ومن الذي يحدد معيار الانحراف والصواب هنا؟ وعلى أي أصلٍ يُبنى هذا التفريق؟

وكان آخرون يهربون إلى جوابٍ مختلف: القانون الوضعي. فيقول لهم: القانون يتغير باختلاف البلدان والعصور. فهل القبح تابعٌ للتصويت والسلطة؟ هل يصبح الشيء حسنًا حين تُبيحه ورقةٌ رسمية، ويصير قبيحًا حين تُجرّمه ورقةٌ أخرى؟ وإذا اختلف قانونان، أيهما الميزان؟

وكان بعضهم يظن أنه وجد مخرجًا في التاريخ: "أمريكا هي التي أوقفت الرق"، أو "الغرب جرّم كذا". فيعود السؤال مرةً أخرى، لأن الجملة لا تجيب عن أصلها: هذا وصفٌ لِمَن فعل، لا بيانٌ لِمَاذا كان الفعل صحيحًا أو خطأً. من أين جاء الحكم؟ وما الذي يجعل "الإيقاف" فضيلةً أخلاقيةً في ذاته؟

وبينما كان أصحاب الشبهات يتناوبون هذه الأجوبة، كان السؤال يتحول إلى شيءٍ آخر: لم يعد سؤال صاحب البث وحده. خرج من الشاشة، وانتقل إلى لسان المتابعين. حتى من لا يعرف تقسيمات العقل ولا اصطلاحات المرجعية صار يحفظ الجملة ويعيدها كما هي، لأنها تُقال بطريقةٍ يفهمها الجميع: ما مرجعيتك؟ ما المصدر الذي ترجع إليه لتقول هذا حسن وهذا قبيح؟

ثم ظهر الشكل الأشد إحراجًا للسؤال، لأن بساطته تُسقط القدرة على التمويه. صار صاحب البث—ومن بعده المتابعون—يسألون بصيغة اختبارٍ مباشر: إذا كنتم تنفون الوحي وتنكرون الفطرة، فما الذي يمنعكم من اعتبار علاقةٍ محرّمة بين أقرب الناس أمرًا مقبولًا إذا اتفق الطرفان؟ ما المرجع الذي يقول: هذا قبيحٌ لذاته، لا لمجرد أن المجتمع يرفضه؟

لم يكن السؤال دعوةً إلى الفوضى، بل كشفًا للثغرة: حين تُسحب المرجعية العليا، ويُترك الحكم بلا أصلٍ ثابت، تصبح بعض الحدود الكبرى قابلةً للجدل من حيث المبدأ. فإذا قال قائل: "عقلي يمنعني"، سُئل: وهل نجعل شعور الفرد ميزانًا عامًا؟ وإذا وجد آخر في نفسه قبولًا ولم يرَ فيه عيبًا، فهل يتحول القبيح إلى حسنٍ بمجرد اختلاف المزاج؟ وإذا قيل: "القانون يمنع"، عادوا إلى السؤال نفسه: القانون يتغير، فهل يتغير معه معنى القبح؟

ومن يومها صار المشهد يتبدّل. كلما ظهر دُنْدُن في بثٍ أو تعليقٍ أو مناظرةٍ صغيرة يريد أن يطلق "رشاش الشبهات" كما اعتاد، وجد السؤال ينتظره في الباب. أحيانًا يأتيه من حسابٍ حقيقي، وأحيانًا من اسمٍ مستعار، لكنه

كان يأتيه بنفس الحدّة الهادئة: قبل أن تعيب على الدين، أعطنا ميزانك أنت. أين مرجعيتك الأخلاقية؟

حاول بعض الدنادلة أن يردّوا بحيلةٍ تكررت بينهم: "أنا لا دين لي ولا إيمان، أنت المؤمن، أنت من يجب أن يبرر. وحتى إن أخطأنا فنحن لا نفعل باسم الدين." كان الرد يبدو، في ظاهره، هروبًا إلى منطقةٍ آمنة. لكن السؤال لم يكن عن "من يبرّر أكثر"، بل عن أصل الحكم. كانوا يُسألون: بأي معيار تقول إن ما في الدين خطأ؟ إن كنت لا تؤمن بمرجعيةٍ أعلى، فكيف حكمت؟ وكيف تجعل حكمك هذا سلاحًا على غيرك؟

وهنا بدأت الورطة تُرى لا تُحكى. لم يعد الأمر شبهةً بعينها يمكن تجاوزها بموضوعٍ آخر، بل صار عقدةً واحدة تتكرر في كل شبهة: الأخلاق. وكلما تأخر الجواب، صار السؤال أثقل، وصار التهرب أفضح.

وكانت الضجة، في بعض لحظاتها، أشبه بضجيجٍ سرّي. ما وراء البثوث بدأت دوائرهم تتحرك: رسائل متبادلة، نقاشات قصيرة، محاولات لصياغة جوابٍ لا يتهاوى في دقيقة. شيئًا فشيئًا بدأت بعض بثوثهم تقلّ، وتراجع بعض الوجوه لأسبابٍ لم يُفصح عنها. لم يكن السبب نقص الرغبة في

الظهور، بل الخوف من سؤالٍ صار كأنه شرط الدخول. من يصعد ضيفًا يعرف أن الحوار سينتهي إلى المرآة نفسها، وأن الهروب منها لم يعد سهلًا.

داخل مجالسهم ظهرت الجملة التي تكشف ارتباكًا حقيقيًا: "نريد أن نناقش الموضوع... لكننا لا نعرف من أين نبدأ، ولا إلى أين سيأخذنا." كان الموضوع أثقل من عنوانٍ يُستهلك ثم يُنسى، لأنه يمسّ أصل الميزان لا تفصيلًا من تفاصيله. ولهذا بدأوا يدفعون "الكبار" إلى الواجهة: لماذا لا تتولى أنت؟ لماذا لا تحسم أنت؟

وفي وسط هذا الضغط ظهر صوتٌ يحاول تثبيت الصف وتخفيف الإحراج: "المؤمنون يظنون أننا بلا مصادر أخلاق، ويظنون أن الأخلاق لا تكون إلا من الدين." كانت محاولة لاستعادة الثقة، لكنها في الحقيقة زادت الإلحاح على السؤال نفسه: إذا كانت هناك مصادر حقًا، فما هي؟ وكيف تُلزم؟ وكيف تمنع هذا الباب من أن يبقى مفتوحًا في كل مرة؟

مع مرور الأيام صار واضحًا أن السؤال لن يختفي بالإنكار ولا بالتأجيل. لم يعد سؤالًا عابرًا يُطرح في بثٍّ ثم يُنسى، بل صار كأنه مفتاحٌ يُفتح به كل باب: ما دامت الشبهات تُعرض بوصفها اعتراضات أخلاقية، فسيظل

السؤال قائمًا في كل مرة: بأي ميزان تحكمون؟ ومن أين تأتون بمعيار الحسن والقبح؟

فهم "الكبار" عندهم أن المشكلة ليست في شبهةٍ واحدة، بل في ثغرةٍ تتكرر في كل شبهة. وأن تركها بلا جواب يعني أن السؤال سيبقى يتبعهم، ويثقل حضورهم، ويجعل أي مواجهةٍ لاحقة تبدأ من نقطة ضعف لا من نقطة قوة. عندها صار الهروب مكلفًا أكثر من المواجهة.

وهكذا، وبطريقةٍ غير مباشرة، أصبحت المواجهة مفروضة عليهم: إن لم يقدّموا جوابًا، بقوا أسرى السؤال. وإن قدّموا جوابًا، دخلوا منطقةً لا يكفي فيها الصراخ ولا العناوين، بل يلزم فيها بناءٌ كامل: مرجعيةٌ تُعرِّف نفسها، وتُثبت قدرتها على الإلزام، ثم تقف تحت الاختبار.

وفي إحدى الليالي ظهر اسمٌ كان يُذكر كثيرًا ولا يقترب. كتب بإلحاح: "اصعدني... اصعدني"، ثم زاد: "أتخاف مني؟" لم ينتبه صاحب البث أول الأمر؛ كان يتحدث ويرد. حتى كتب المتابعون: انتبه... كبيرهم يطلب الصعود. عندها التفت وقال بهدوء: أهلًا وسهلًا.

صعد الرجل مبتسمًا كأنه جاء لينتزع مشهدًا لا ليناقش فكرة. قال: "لم ترني؟ أم لا تريدني؟" فأجابه صاحب البث: "أنا لا ألاحق التعليقات وأنا أتكلم. ولو لم أرد صعودك لما قبلت الآن. تفضل: ماذا تريد؟"

قال: "مناظرة."

قال صاحب البث: "عرّف نفسك للمشاهدين."

قال: "أنا ملحد."

سأله: "إيجابي أم سلبي؟"

قال: "إيجابي."

قال: "وفي أي موضوع؟"

قال: "الأخلاق."

اتفقا على موعدٍ قريب، ثم انقطع الصوت وبقي المعنى معلقًا: هذه ليست شبهةً تُردّ في دقيقة، بل ميزانٌ سيُختبر أمام الجميع.

ومن هنا... اقتربت لحظة الامتحان.

الفصل الثاني والعشرون

حين وُضع الميزان



جاء الموعد أسرع مما توقع كثيرون. في الدقائق الأولى كانت الأرقام تتصاعد كأنها لا تبحث عن "من يغلب"، بل عن جوابٍ طال انتظاره. كان صاحب البث يعرف هذا الإحساس: ليس صخبًا من أجل الصخب، بل توترٌ لأن سؤالًا واحدًا خرج من التعليقات إلى وجهه الحقيقي.

قال بهدوء: سنجعلها واضحة، حتى لا يضيع الكلام بين العناوين. خمس دقائق لكل طرف في البداية. ثم التفت إلى ضيفه: أنت ضيفٌ عندي، فاختر: أتبدأ أنت أم أبدأ أنا؟

قال الضيف بلا تردد: إن أردتَ أن أبدأ، سأبدأ.

قال صاحب البث: تفضّل. عرّف لنا ما تقصده بالأخلاق، واذكر مرجعيتك الأخلاقية. نريد أن يكون الحديث بين الإيمان والمادة على أرضيةٍ معلومة، لا على انطباعات.

بدأ الضيف كأنه يقرأ من بناءٍ جاهز في ذهنه: مرجعيتي في الأخلاق "النفعية العامة" بمرجعيةٍ علمية. ثم أخذ يشرحها بمفرداتٍ تتكرر حول المعنى نفسه: تقليل الضرر، حفظ النوع، تحقيق أكبر قدر من السعادة، وتجنّب ما يهدد توازن المجتمع. كان الكلام يبدو في ظاهره مرتبًا، لكنه ظل يدور

حول التعريف دون أن يهبط إلى سؤالٍ واحد حاسم: من أين تأتي "الإلزامية"؟ وكيف يصبح هذا المعيار قادرًا على الحكم حين تتعارض رغبات الناس ومصالحهم؟

كان صاحب البث يبتسم أحيانًا، لا ابتسامةَ سخرية، بل ابتسامةَ من يعرف إلى أين يمضي الكلام. ولم يقاطع. تركه حتى انتهت الدقائق الخمس، وكأن أول خطوةٍ في امتحان المرجعية أن تُقال كاملة كما يريد صاحبها.

ثم قال صاحب البث: مرجعيتي الأخلاقية كمؤمن أظن أن كثيرًا من الناس يعرفونها، ومن لا يعرفها فليسمعها كما هي دون تشويه. الأخلاق عندي ليست ورقةً أفتحها كلما رأيت شيئًا في الطريق. الإنسان لا يحتاج نصًّا ليشعر بقبح الظلم، ولا صفحةً ليكره قتل النفس، ولا درسًا طويلًا ليضيق بالعنصرية. هذه معانٍ تسبق الكتب في داخل الإنسان.

ثم رتّبها في ثلاثة أصول، كأنه يضع خريطةً للذي يريد أن يفهم:

الأصل الأول: الفطرة. فطرة الله التي فطر الناس عليها. يولد الإنسان وفي داخله حسٌّ ابتدائي يميّز بعض المعاني الأساسية قبل أن يقرأ، وقبل أن يُلقّن. قد يفسد هذا الحس، وقد يضعف، لكنه موجود في الأصل.

الأصل الثاني: الأخلاق المكتسبة. ما يتعلمه الإنسان من بيته، ومن بيئته، ومن المدرسة، ومن المعلم الذي يصير في حياة الطفل مرآةً يومية: كيف يحترم، كيف يصدق، كيف يلتزم، كيف لا يؤذي غيره. وهذه أخلاق تُكتسب بالتربية والقدوة قبل أن تُكتسب بالجدل.

الأصل الثالث: الدين. لا يأتي ليصنع الإنسان من الصفر، بل ليصوّب حين تنحرف الفطرة أو تُغطّى بالشهوة أو يُشوَّه المكتسب. ويضيف إلى الإنسان ما لا يحيط به عقله في كل حال: أن هناك أمورًا يراها المرء "شرًا" في لحظةٍ ما، ثم يكتشف أن وراءها حكمةً لم يكن يراها. ليس لأن الإنسان بلا عقل، بل لأن العقل محدود أمام غيبٍ لا يدركه وحده.

ثم قال: قبل أن نبدأ الأسئلة، عندي استيضاح واحد. أنت قلت: "النفعية العامة" بمرجعية علمية. ما المقصود بالمرجعية العلمية هنا؟ أريد أن أفهمها بدقة حتى أبني أسئلتي على أرضيتك، لا على تصوري عنها.

أجاب الضيف: نعتمد على العلم. إذا أثبت العلم أن شيئًا يضر بالمجتمع نتركه. هذا جزء من مرجعيتي الأخلاقية.

هزّ صاحب البث رأسه كأنه يثبّت العبارة حرفًا بحرف، ثم بدا كمن يدوّن: النفعية العامة، تقليل الضرر، تحقيق السعادة، و"العلم" معيارًا لما يضر. لم يكن التدوين حركةً مسرحية، بل رسالة ضمنية للمشاهد: نحن الآن نثبت الأرضية التي سيُسأل عليها صاحبها، حتى لا يهرب بعد قليل إلى تعريفٍ آخر.

قال صاحب البث: حسنًا. سأبدأ بسؤالٍ واحد، ليس من باب الإثارة، بل من باب اختبار المعيار. تخيّل حادثة خيانة زوجية تمت سرًّا: زوجٌ لا يعلم، ولا تظهر آثارٌ اجتماعية، والطرفان يقولان إنهما حققا "سعادة" عابرة، واتخذا احتياطات تمنع الضرر الصحي. بحسب شروطك أنت: لا ضرر ظاهر، وسعادة تحققت، ولا أثر طبي. هل هذا الفعل حسن أم قبيح؟ ولماذا داخل مرجعيتك؟

تردد الضيف. ثم قال: بالنسبة لي هو قبيح، لأن فيه ضررًا للزوج وللمجتمع. ثم لم يكتفِ بالجواب، بل اتهم صاحب البث بأنه لم يفهم المرجعية: أنت لا تفهم "النفعية العامة بمرجعية علمية".

تركه صاحب البث يكمل، احترامًا للضيف لا خوفًا من الكلام. لكن الضيف بدل أن يُظهر "أين القبح" داخل الأرضية التي أعلنها، بدأ يقفز إلى أسئلة أخرى كأنها ستغطي الفراغ: أنتم المؤمنون لو لم يقل لكم دينكم "لا تقتل" لقتلتم. ولو لم يقل لكم "لا تنكحوا المحارم" لفعلتم. ثم اندفع إلى أسئلةٍ متتابعة عن ابتلاء إبراهيم بذبح ابنه، وعن قصة الخضر وقتل الغلام. كانت أسئلة تُلقى بسرعة، كأنها تُستعمل لتغيير ساحة المعركة من "مرجعية الأخلاق" إلى "شبهات متفرقة".

حين انتهى وقتُه، قال صاحب البث بهدوءٍ لا يخلو من حزم: أظنك يا صديقي لم تفهم السؤال. وأهل العلم يقولون: فهم السؤال نصف الجواب. سؤالي لم يكن عن شعورك الشخصي: "بالنسبة لي". سؤالي عن مرجعيتك التي أعلنتها أنت. إن كانت مرجعيتك تقول: نقيس بالقليل من الضرر وكثير السعادة، ثم تقول لي في مثالٍ تنطبق عليه شروطك: "قبيح لأنه قبيح"، فأين المرجعية إذن؟ أين المعيار الذي يلزمني ويُلزمك؟

ثم التفت إلى الرشاش الذي ألقاه الضيف، وأعاده إلى مكانه دون أن يتجاهله: أنت بنيت أسئلتك كأن المؤمن لا يعرف الحسن والقبيح إلا إذا

فتح كتابًا. وأنا قلت لك قبل قليل: الفطرة موجودة قبل النص. والدليل أن الإنسان يعترض في داخله قبل أن يقرأ. انظر إلى دهشة موسى حين رأى قتل النفس، لم يكن يقرأ نصًا في اللحظة نفسها، بل قال مستنكرًا: لقد جئت شيئًا نكرًا. هذا صوت الفطرة حين ترى ما تصفه قبيحًا.

أما قصة الخضر، فهي ليست "تشريعًا مفتوحًا" للقتل، بل فعلٌ بأمرٍ خاص لحكمةٍ غائبة، وقد بيّن النص نفسه مآلها. وأما ابتلاء إبراهيم، فهو امتحانٌ لنبيٍّ في رؤيا صادقة، ولم يُترك ليذبح ابنه؛ بل انتهى الأمر بالفداء. هذه ليست حججًا ضد الأخلاق، بل أمثلة على أن هناك وقائع لا تُقرأ خارج سياقها، وأن الحكم لا يُقتطع من منظومته.

ثم عاد إلى نقطة المناظرة الأصلية، كأن كل التفريعات كانت دخانًا لا ينبغي أن يحجب النار: الآن نرجع لسؤالي. أنت تقول إن العلم يمنعك. وتقول إن الجينات تثبت ضررًا في علاقاتٍ محرّمة بين المحارم. حسنًا. متى صار "العلم" بهذا المعنى حاكمًا؟ وماذا قبل أن تُكتشف هذه التفاصيل؟ ثم سؤالٌ أبسط: إذا تغيّر تقدير العلم أو اختلفت نتائجه أو ظهرت صورٌ تقلل الضرر، هل يتغير الحكم عندك؟ هل يصبح القبيح حسنًا لأن الورقة تغيّرت؟

لم يجب الضيف جوابًا يثبت معيارًا ثابتًا. عاد إلى عبارته: بالنسبة لي قبيح. وقال إن العلم يقول كذا وكذا. وحين طُلب منه أن يذكر مرجعًا واضحًا، قال: ابحث في الشبكة.

عند تلك اللحظة لم يرفع صاحب البث صوته، لكنه قال جملةً واحدة كانت كافية لتغيير وجه المناظرة: أنا لا أبحث عن كلمة تريحني. أنا أبحث عن مرجعية أرجع إليها فأتعلم منها، ثم أستطيع أن أُلزم بها نفسي وغيره. أما أن تقول "مرجعيتي" ثم إذا ألزمتك بأسئلتها تعود إلى "بالنسبة لي"، فهذا يعني أن المرجعية ليست مرجعية، بل رأي شخصي.

حاول الضيف أن يهاجم الفطرة من جديد، وقال: أنتم لا تتكلمون إلا عن الفطرة، ولا أحد من العلماء تكلّم عنها.

فأجابه صاحب البث بهدوء: إن كنت لا تعلم، فهذه مشكلتك لا مشكلتنا. ثم أشار بإيجاز إلى أن أبحاثًا في علم النفس الديني ناقشت الاستعدادات الفطرية عند الأطفال نحو الاعتقاد والمعنى، وذكر أعمالًا معروفة في هذا الباب، ثم أعاد النقاش إلى أصوله دون استعراض، قائلًا: نحن لا نخترع

الفطرة من فراغ، فالحديث النبوي يقول: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة»، والقرآن يذكر فطرة الله التي فطر الناس عليها.

والعلم حين يقترب من هذه المساحة لا يلغيها، بل قد يلمّح إلى أثرها.

ثم قال—وكأنه يلخّص للناس لا لخصمه وحده: أنا لم آتِ لأثبت أن المؤمن بلا عقل. أنا أقول إن الأخلاق في التجربة الإنسانية تبدأ من داخل الإنسان ثم تُربّى، ثم تُضبط حين تنفلت. أما أن تبني "مرجعية" تُستعمل في المناظرة ثم تنهار عند أول تطبيق، فهذا ليس ميزانًا، بل غطاءٌ مؤقت.

لم تكن المشكلة أن الضيف لا يملك إجابةً جاهزة على كل سؤال. المشكلة أعمق: أن المعيار الذي بدأ به لم يستطع أن يفسر أحكامه حين نزل من العموم إلى المثال. كان كلما ضاق به الإلزام عاد إلى العبارة التي تبدو مريحة لكنها تهدم ما قبلها: "بالنسبة لي".

وفي تلك اللحظة، فهم كثيرون لماذا كان السؤال يطاردهم. لم يكن سؤالًا للتشهير بأحد، بل سؤالًا يطلب أساسًا: إن كنتم تحاكمون الدين باسم الأخلاق، فأرونا ميزانكم أولًا. وحين وُضع الميزان على الطاولة، اكتشف

المشاهد أن بعض الأجوبة تُشبه البناء من بعيد، لكنها حين تُختبر من الداخل، لا تجد تحتها إلا فراغًا يتبدّل بتبدّل الرأي.

أما دُنْدُن... فكان يراقب حيث لا يراه أحد. ولأول مرة لم يشعر أن الكلام مجرد "ردود" تُقال ثم تُنسى. شعر أن السؤال دخل إلى مكانٍ أعمق: إلى الفكرة التي كان يتكئ عليها وهو يظن أنه لا يحتاج إلى مرجع.

وكان واضحًا أن الجولة لم تنتهِ بعد. لكنها انتهت بما يكفي ليعرف الجميع: هذه الليلة ليست كبقية الليالي، لأن الحديث لم يعد عن شبهةٍ تُقذف، بل عن أصلٍ تُبنى عليه الشبهات كلها.

الفصل الثالث والعشرون

ما بعد الميزان

انتهت المناظرة، لكن أثرها لم ينتهِ معها. كأن البث أُغلق على الناس وبقي السؤال مفتوحًا فيهم: ليس سؤال "من غلب"، بل سؤال "على أي شيء نحكم؟".

في الدقائق التالية لم يذهب "كبيرهم" حيث تُوزن الكلمات بميزانٍ واحد، بل اتجه إلى معسكره؛ إلى المكان الذي يعرف أن التقييم فيه مضمونٌ قبل أن يبدأ. هناك بدأت المقاطع تُعاد، لا بوصفها تجربةً تُفهم، بل بوصفها نتيجة تُعلن. صعدت نبرة المدح سريعًا: "لقد جئت بالمرجعية الحقيقية... النفعية العامة بمرجعية علمية." وقال آخرون: "أغلقت الأبواب... سجنت أسئلتهم... لم تترك لهم منفذًا." حتى إن بعض المترددين—وهم من داخل صفهم—قالوا بصراحة أقرب إلى النصيحة: "مناظرة الأخلاق ليست سهلة، وقد يفهم الناس منها خطأً أن غير المؤمن لا مرجعية له." ثم أضافوا: "ومع ذلك...

نحترم جرأتك.” وقيل له أيضًا: “لم تكن موفقًا في اختيار هذا الموضوع.” لكنه ردّ: “أنا الذي اخترت موضوع الأخلاق.”

ومع كل هذا المدح، ظهرت جملة أخرى بين السطور لا تُقال بصراحة لكنها تُفهم: “الأفضل ألا نفتح هذا الباب ثانية.” كان الباب ثقيلاً، لا لأنه غامض، بل لأنه يلزم من يفتحه أن يضع ميزانًا ثابتًا أمام الناس، ثم يقبل أن يُختبر به.

في تلك الأجواء التقط دُنْدُن ما يلزمه. لم يلتقط تعريفًا ولا أرضيةً ولا تفصيلًا، لم يحمل معه “النفعية العامة” ولا معنى “المرجعية العلمية”، ولم يفهم لماذا سُئل سؤال الخيانة ولا ما معنى أن تُلزم داخل شروطك. خرج بكلمتين فقط، كما يخرج من دخل السوق ليلتقط لافتة لا ليشتري معرفة: “أفحمكم كبيرنا... ورقة علمية.”

كانت الكلمة بالنسبة إليه أثمن من الفكرة؛ لأنها تصلح للعرض السريع في كل مكان. صار ينتقل من بثٍّ إلى بث، وحين يسمع أحدًا يتكلم عن الأخلاق أو عن تلك المناظرة، يكتب في التعليقات: “أفحمكم كبيرنا.”

يكررها حتى تبهت من كثرة التكرار، ثم يعود ويكررها كأنها تعويضٌ عن فهمٍ لم يحدث.
وحين فتح صاحب البث المباشر بثًّا جديدًا، دخل دُنْدُن كما يدخل من يريد أن يترك ضحكةً ثم يخرج. كتب العبارة ذاتها مراتٍ متتابعة، وأضاف إليها ضحكًا يسبق الكلام بدل أن يتبعه. لاحظه المتابعون سريعًا: "دُنْدُن هنا... يرددها في كل مكان." فالتفت صاحب البث وقال: "اصعد يا دُنْدُن. سمعت أنك ترددها في كل بث. لعلّك فهمت جيدًا. لعلّك تفهمنا أكثر ونستفيد منك."
صعد دُنْدُن. سلّم صاحب البث: "السلام عليكم يا دُنْدُن." لكن دُنْدُن لم يردّ فورًا، بدأ يضحك، يضحك بلا توقف، كأن الضحك صار عنده غطاءً حين لا يجد جوابًا. قال له صاحب البث بهدوء: "ماذا يضحكك يا دُنْدُن؟ لنضحك معك." فقال: "أفحمكم كبيرنا."
ابتسم صاحب البث ابتسامة من يريد أن يعطي الفرصة لا أن يصنع فضيحة. قال: "جميل جدًا. لعلك فهمت. أين وقع الإفحام؟ أشرح للناس." قال دُنْدُن: "في موضوع الأخلاق." قال صاحب البث: "حسنًا... اشرح لنا

المرجعية الأخلاقية عند الماديين، وعندك أنت يا دُنْدُن." قال دُنْدُن متعجّلًا: "مرجعية كبيرنا هي مرجعيتنا كلنا." فسأله صاحب البث: "ألم تقل لي في يوم من الأيام إن مرجعيتك هي العقل؟" قال دُنْدُن: "وهذه كذلك... العقل له علاقة."

كان واضحًا في صوت دُنْدُن أنه يمسك كلماتٍ متفرقة ليكوّن منها جملة، لا ليكوّن منها معنى. قال صاحب البث: "ما المرجعية التي جاء بها من تزعم أنه أفحمنا؟ سمِّها واشرحها." تردد دُنْدُن ثم عاد إلى الضحك. والناس ضحكت، لا شماتةً في شخص، بل دهشةً من أن من يرفع شعار "الإفحام" لا يستطيع أن يذكر أصلًا ما الذي قيل.

قال صاحب البث: "لا أريد إحراجك أمام الناس... هدفي الإفادة والاستفادة." ثم لقّنه الاسم الذي يدور حوله ضجيجهم: "مرجعيتكم التي قالها كبيركم هي: النفعية العامة بمرجعية علمية. هل تستطيع أن تشرحها؟" قال دُنْدُن: "العلم... العلم هو كل شيء." قال صاحب البث: "هل فهمت معنى النفعية العامة بمرجعية علمية؟"

لم يجب. فانتقل صاحب البث إلى السؤال الذي كان سبب الضجة من الأصل: "ما المانع الذي يمنعك—وفق مرجعيتك—من الزواج بالمحارم إذا زعمتَ تحقق السعادة وعدم الضرر؟" قال دُنْدُن بسرعةٍ كمن يحفظ كلمة: "ورقة علمية... الجينات." قال صاحب البث: "طيب. لو خرج كبار الأطباء وقالوا إن تلك الورقة كانت خطأ، وأن الضرر ليس كما قيل... هل يصبح الأمر عاديًا؟"

توقف دُنْدُن لحظة، ثم عاد إلى الشعار: "المهم أفحمك... أنا لم أصعد لتسألني. أنا صعدت لأقول: أفحمك." كأنه يعترف، دون أن يقصد، أن الغاية ليست الوصول إلى جواب، بل تثبيت لافتة.

ولم يكتفِ صاحب البث بذلك. أراد أن يختبر صدق حضوره، لا صدق ضحكه. قال له: "كنت حاضرًا المناظرة؟" قال دُنْدُن: "نعم، كنت حاضرًا." قال: "من بدايتها إلى نهايتها؟" قال: "نعم." قال صاحب البث: "إذًا ما المرجعية الأخلاقية التي قلتُها أنا في المناظرة؟"

قال دُنْدُن بثقةٍ لا تشبه الفهم: "الدين فقط... الدين فقط." قال له صاحب البث بهدوءٍ أثقل من أي سخرية: "مع أنك تقول إنك سمعتني من البداية إلى

النهاية.” لم يجد دُنْدُن جوابًا. قال عبارته الأخيرة كمن يغلق الباب على نفسه: “أنا طلعت فقط لأقول: أحكمكم كبيرنا... ولم آت لأناقشك.” ثم انسحب من البث.

كان انسحابًا مختلفًا عن انسحاب الضحك. ضحك دُنْدُن كثيرًا، لكن شيئًا في داخله كان يتراجع بصمت. لم يصرّح، ولم يعترف، وربما لم ينتبه لنفسه وهو ينسحب، لكن الحقيقة كانت تقف أمامه دون أن يتكلم عنها: أنه ظل يدندن حول أمورٍ لم يفهمها، وأنه كان يلتقط شبهةً من هنا، ويصنع منها قيمةً هناك، ثم يمضي بها كأنها معرفة.

وفهم الناس—بهدوءٍ لا يحتاج إلى تشهير—أن كثيرًا مما كانوا يسمعونه من “الدندنة” لم يكن علمًا ولا فهمًا، بل حركةً صوتية تسبقها ثقة وتلحقها لافتة. وأن الدندنة قد تصنع ضجيجًا واسعًا، لكنها لا تصنع ميزانًا.

منذ تلك الليلة بدأت البثوث التي تقوم على الدندنة تقلّ، لا لأنها انتهت، بل لأن السؤال صار يطاردها من داخلها. صار من يتكلم عن الأخلاق يُسأل قبل أن يسأل: ما مرجعيتك؟ وصار كثيرون يشعرون أن الفطرة—حين تُترك سليمة—تعلو في أغلب المواقف: أن قتل النفس قبيح، وأن الظلم قبيح،

وأن الاعتداء قبيح، وأن حرمة الأقربين ليست درسًا مدرسيا يتعلمه الإنسان بعد سنوات، بل حدٌّ داخلي تقوم عليه نفوس الناس قبل الكتب. ثم تأتي التربية فتقوّي هذا المعنى أو تضعفه، ويأتي الدين ليصوّب ويقيد ويهدي حين تنحرف البوصلة أو تُغطّى.

ولم يكن هذا القول وعدًا بأن الإنسان لا يخطئ؛ الإنسان يخطئ كثيرًا. لكنه كان تذكيرًا بأن الأخلاق ليست شعارًا يُقال عند الحاجة، ولا ورقة تُرفع حين يُحرج السؤال، بل أصلٌ يُبنى عليه الكلام. وأن من ينسلخ من فطرته قد يجد لنفسه ألف عبارة، لكن عباراته لن تمنحه ميزانًا.

أما دُنْدُن... فلم يسقط فجأة أمام الناس، ولم ينهزم بالصوت. كان انهيارًا غير معلن: بدايةُ سؤالٍ يطلّ من بعيد—ليس سؤال المناظرة، بل سؤال البداية: متى دخلت أول شبهة؟ وكيف تحولت "رفقة سؤالٍ صغير" إلى دندنةٍ لا تنتهي؟

ومن هنا... لم يعد الأمر مجرد بثٍّ آخر. صار الطريق يعود إلى أول خطوة.

الفصل الرابع والعشرون

سؤال الشك

بعد مناظرة الأخلاق تغيّر شكل الضجيج. لم يختفِ أهل الدندنة، لكنهم صاروا أكثر حذرًا: يتجنبون الباب الذي يفضحهم، ويبحثون عن أبوابٍ أخرى يظنون أنها أقل إحراجًا. كانوا يعرفون أن سؤال "المرجعية" سيعود مهما غيّروا الموضوع، لذلك صاروا يلتفون حوله، لا يواجهونه.

ومع ذلك، ظلّ صاحب البث يذكّرهم— كلما عاد بعضهم إلى لغة الاستفزاز—أن ادعاء "الحرية" لا يبرّر الاعتداء على حرية الآخرين في الاعتقاد، ولا يجعل السخرية من مقدسات الناس شجاعةً فكرية. كان يسأل بسؤالٍ هادئ لا يحمل صراخًا: في مرجعيتك التي تزعمها، هل الإساءة إلى ما يقدسه غيرك فعلٌ حسن أم قبيح؟ وإن قلت: قبيح، فبأي معيار؟ وإن قلت: حسن، فأي "أخلاق" هذه التي تسمح أن يُهان ما يراه الناس معنى حياتهم؟

ولأن السؤال كان يضغط عليهم من كل جهة، حاول بعضهم البحث عن مخرجٍ من داخل النص نفسه: أن يجد في الإيمان ما يسمح له أن يحوّل التهرب إلى "حقٍّ شرعي" أو "مساحةٍ مقبولة". وهكذا ظهر ضيفٌ جديد. طلب الصعود بهدوءٍ هذه المرة. لم يدخل ضاحكًا مثل دُنْدُن، ولم يرفع لافتة جاهزة. بدا كمن يحمل سؤالًا واحدًا يريد أن يعلّقه في الهواء ثم يختفي.

قال صاحب البث: أهلًا وسهلًا. ماذا تريد أن تناقش؟

قال الضيف: عندي سؤال... هل في دينكم يُسمح لنا أن نشك؟

قال صاحب البث: على حسب الشك. الشك في ماذا؟

قال الضيف: الشك في الله.

لم يعلُ صوت صاحب البث، لكنه توقف لحظة كأن السؤال لا يحتاج غضباً بل يحتاج ترتيباً. قال: الاستفهام في ذاته ليس جريمة، لكن دعنا نفرّق بين نوعين: سؤال يبحث عن فهمٍ ومعنى، وبين شكٍّ يُتخذ ذريعة للهروب من كل التزام. أنت أيهما تقصد؟

قال الضيف بسرعة: الشك... لأن القرآن ذكر أن إبراهيم شك.

قال صاحب البث: من أين أتيت بهذا؟

قال الضيف: ألم يقل إبراهيم: أرني كيف تحيي الموتى؟ ثم قال الله له: أولم تؤمن؟ أليس هذا دليلًا على أنه شك؟

هنا لم يسارع صاحب البث إلى "إدانة" السؤال، بل بدأ من اللغة نفسها، كأنه يعيد الآية إلى معناها الطبيعي قبل أن تُحمل على غير مقصدها.

قال: هل تفهم فرقًا بين "أرني" و"أشك"؟

"أرني" طلبُ تعليمٍ وكشف، لا إعلانُ إنكار. كأن إنسانًا يقول لطبيب: "أرني كيف تُجرى العملية"، ليس لأنه ينكر قدرة الطبيب، بل لأنه يريد أن يرى الكيفية، وأن ينتقل من معرفةٍ عامة إلى معرفةٍ أعمق.

قال الضيف: لكن لماذا سأل الله: أولم تؤمن؟

قال صاحب البث: هذا سؤالٌ يعلّمنا الفرق بين أصل الإيمان وبين درجة اليقين. وجواب إبراهيم نفسه يحسم المعنى: قال: بلى... ثم قال: ولكن ليطمئن قلبي.

"بلى" في العربية تثبيتٌ للإيمان. هو لم يقل: "لا"، ولم يقل: "لستُ مؤمنًا"، بل قال: "بلى"—أي: أنا مؤمن. ثم بيّن أنه يطلب زيادة طمأنينة، انتقالًا من علم اليقين إلى عين اليقين.

سكت الضيف قليلًا. كان كأنه يحاول أن يجد منفذًا آخر.
قال: وهناك حديث عندكم: "نحن أحق بالشك من إبراهيم". أليس هذا تصريحًا بالشك؟

قال صاحب البث: أكمل الحديث.

تردد الضيف، كأنه كان يريد أن يترك الجملة وحدها لتعمل عملها. قال صاحب البث مرة أخرى بهدوء: أكمل الحديث؛ لأن اقتطاع الكلام نصفُ تدليس، ولو لم تقصده.

ثم قال صاحب البث، وهو يردّ المعنى إلى أصله: المقصود ليس إثبات الشك، بل نفيه على طريقةٍ بليغة. إبراهيم لم يشك في قدرة ربه ولا في وجوده، لكنه سأل لطمأنينة القلب، لا لردّ أصل الإيمان.

ثم نقل صاحب البث السؤال من جدل الألفاظ إلى آيات الواقع، وقال بصوتٍ هادئ كأنه يقرأ على الناس بوصلةً قديمة:

"قيل لأعرابي: بمَ عرفت ربك؟ فقال: البَعْرَةُ تدلُّ على البَعِير، والأثرُ يدلُّ على المسير، فسماءٌ ذاتُ أبراج، وأرضٌ ذاتُ فِجاج، وبحارٌ ذاتُ أمواج... ألا يدلُّ ذلك على اللطيفِ الخبير؟"

لم يكن يستشهد ليُسكت أحدًا، بل ليقول إن الطريق إلى الله ليس لغزًا خاصًا بالنخب. إن الآيات حول الإنسان ليست صامتة، لكن الإنسان هو الذي يقرر: هل يسمعها سمع الباحث، أم يتخذ من الشك ستارًا لئلا يلتزم؟
ثم قال للضيف: أنت قلت: "أشك في الله". دعنا نكون واضحين: إن كان شكّك بداية بحثٍ منصف فمرحبًا بالسؤال، وإن كان وسيلة لتأجيل الحقيقة إلى ما لا نهاية، فهذه ليست حريةً فكرية بقدر ما هي هروب.

وبينما كان الضيف يحاول أن يجيب، كان دُنْدُن يراقب من بعيد كما اعتاد. لكنه هذه المرة لم يجد شعارًا جاهزًا يلمع في التعليقات. وجد سؤالًا إن حمله كما هو ألزمه أن يتغير، وإن تهرب منه عاد إلى الدندنة القديمة... تلك التي تُكثر الكلام وتُقلّص المعنى.

ومن هنا بدا أن الطريق أمامه صار أضيق: كل بابٍ يفتحه للهرب، يردّه إلى الباب نفسه—باب السؤال الصادق—حيث لا تنفع اللافتات، ولا ينجو من الامتحان إلا من قرر أن يفهم قبل أن يتكلم.

الفصل الخامس والعشرون

حين بدأ الضجيج يخجل

لم يكن دُنْدُن يعيش وحده، حتى وهو يتظاهر أنه وحده. كانت وراء الشاشة بيوتٌ تتنفس، وأمٌّ تتعب بصمت، وأبٌ يحاول أن يفهم دون أن ينهار، وجيرانٌ يسمعون الاسم قبل أن يروا الوجه. كانت "الدندنة" عنده تبدو لعبةً في التعليقات، لكنها في البيت كانت شيئًا أثقل: نظراتٌ متعبة، وأسئلةٌ لا تجد طريقًا إلى جواب، وخوفٌ صغير ينام مع العائلة ويستيقظ معها.

منذ زمنٍ صار دُنْدُن يعود إلى البيت أقل كلامًا وأكثر انشغالًا. الهاتف لا يفارقه، لكنه لا يمنحه الطمأنينة. كان ينتقل بين البثوث كما ينتقل من غرفةٍ إلى أخرى في بيتٍ ضيق، يبحث عن كلمةٍ يرفع بها نفسه أمام نفسه، لا عن معنىٍ يحرره. وحين كانت تُذكر الأخلاق أمامه، كان يشعر كأن السؤال يقترب من مكانٍ لا يحب أن يُسأل فيه: المكان الذي لا تنفع فيه اللافتات.

لم يتغير دُنْدُن دفعةً واحدة. لم يصحُ في صباحٍ واحد ويقرر أن يعود إنسانًا آخر. لكنه بدأ يلاحظ شيئًا بسيطًا—وشديد الدلالة: أن الضجيج الذي كان يملأ المنصات لم يعد يجرؤ كما كان.

قبل ذلك، كانت بعض البثوث تقوم على فكرةٍ واحدة: أن تُقال الإهانة أعلى، وأن تُرمى المقدسات كأنها هدفٌ سهل، وأن يُقنعوا أنفسهم أن هذا اسمه "حرية". كان السبّ عند بعضهم علامة شجاعة، والسخرية دينًا جديدًا، وتحقير الآخر وسيلةً لاختصار الحوار.

لكن صاحب البث—بهدوءٍ لم يخلُ من صرامة—كان يضع أمامهم مرآةً لا يحبون النظر فيها. لم يكن يدخل معهم لعبة "من يسبّ أكثر"، ولا يردّ الإهانة بإهانة. كان يردّ بسؤالٍ واحد يعود كل مرة كأنه يقطع الطريق على الفوضى:

هل تسمح مرجعيتكم الأخلاقية أن تسبّوا إلهنا؟

هل تسمح مرجعيتكم أن تهينوا نبيًّا يقدسه الناس؟

هل تسمح مرجعيتكم أن تحتقروا المؤمنين، وتسخروا من آبائهم وأمهاتهم وأعراضهم، ثم تقولوا: هذه حرية؟

كان السؤال بسيطًا، لكنه كان يضغط على موضعٍ حساس: إذا كانت "الأخلاق" عندهم مجرد شعار، فسيفضحهم السؤال. وإذا كان عندهم معيارٌ فعلاً، فلابد أن يعترفوا أن السبّ ليس فضيلة.

وذات يوم جاء ضيفٌ جديد يريد أن يدافع عن "النفع العام" وعن تلك اللغة التي يتزينون بها. دخل وهو يريد أن يسأل لا أن يُسأل. قال لصاحب البث: لم آتِ لتسألني... أنا الذي عندي أسئلة.

قال له صاحب البث بهدوءٍ لا يستفزه: سؤال واحد فقط قبل كل شيء... ثم اسأل ما شئت.

قال الضيف: تفضل.

قال صاحب البث: هل مرجعيتكم الأخلاقية تسمح لكم بسبّ الله ورسوله ومقدسات الآخرين؟

توقف الضيف لحظة، ثم قال—وكأنه لأول مرة يسمع السؤال من داخل معسكره لا من خارجه: أنا ضدّ كل من يسبّ الله والرسول.

لم يحتج صاحب البث إلى أكثر من ذلك. لم ينتصر بصوت، ولم يطلب اعتذارًا علنيًا، ولم يصفّق لنفسه. لكنه كان يعرف أن هذه الجملة—حين تُقال

أمام الناس—تصنع أثرًا أكبر من مئة شتيمةٍ مرتدة. لأنها تقطع الحبل الذي كانوا يشدّون به جمهورهم: أن السبّ حرية.

ومع تكرار هذا النمط، بدأت ظاهرةٌ صغيرة تتحول إلى تغيرٍ ملحوظ: صارت البثوث التي تسبّ المقدسات تقلّ. لم تختفِ نهائيًا، ولم نقل إن الجميع تابوا أو عادوا إلى الإيمان، لكن الضجيج خسر جزءًا من جرأته. أصبح السبّ يحرج صاحبه أكثر مما يرفعه. وأصبح كثيرٌ منهم—ولو لم يصرّح—يفهم أن الشتيمة لا تُثبت فكرة، وأن من يزعم "الأخلاق" لا يليق به أن يبدأ بإهانة ما يقدسه الآخرون.

في البيوت كان هذا يُرى بطريقةٍ مختلفة. لم يكن الناس ينتظرون أن يصير كل شيء مثاليًا. كانوا يريدون فقط أن يهدأ القبح العلني الذي يجرح السمع. أن يقلّ مشهد "السبّ المباشر" الذي كان يتسلل إلى الهواتف كأن لا أحد يحرس حدود الكلام. وحين بدأ هذا يخفّ، شعر كثيرون بشيء من الراحة—ليس لأن المعركة انتهت، بل لأن النار لم تعد تتسع كما كانت.

وحتى دُنْدُن—الذي كان يستعمل الإهانة أحيانًا كعلامة انتماء—صار يلاحظ أن الساحة لم تعد تشجّع ذلك كما في السابق. صار السبّ يفضح

صاحبه بدل أن يرفعه. وصار السؤال يطارد كل من يحاول أن يتجاوز الحدود: ما مرجعيتك؟ وكيف تسمح لك أن تهين؟

كان هذا أول "مكسب" واضح لذلك المسار الهادئ. ليس هدايةً كاملة للناس، ولا انقلابًا مفاجئًا في القلوب، بل شيءٌ أبسط وأقرب إلى الواقع: أن الهدوء حين يكون ذكيًا، يقلّل مساحة الفوضى. وأن الدعاة الذين يفهمون طبيعة المنصات يعلمون أن من يحب الصدمة والضجيج يتغذى على ردّ الفعل، وأن مواجهته بالسبّ تزيده قوة وانتشارًا. لذلك وضعوا شرطًا عمليًا واضحًا: لا حوار بلا احترام، ولا نقاش مع من يجعل الإهانة طريقة.

نجحت الخطة لأنها لم تكن ثأرًا، بل كانت تضييقًا على السلوك الذي يفسد المجال العام. لم تُسكت كل الأصوات، لكنها جعلت أصواتًا كثيرة تخجل من قبحها أمام نفسها، ولو قليلًا. وهذا—في زمنٍ يصنع الشهرة من الفوضى—ليس أمرًا صغيرًا.

ومع كل هذا، بقي دُنْدُن في مكانه الحرج: لم يعد يستطيع أن يرفع سبَّه كما كان، ولم يعد يستطيع أن يحمل "أفحمكم" كما كان، لأن السؤال صار يقف عند باب كل بثّ: هل هذا من الأخلاق؟

وكان البيت يراقب. الأب لا يقول كثيرًا، لكنه يرى. والأم لا تجادل في التفاصيل، لكنها تشعر حين يخفّ الضجيج قليلًا أن صدرها يتسع لحظة. كأن أول خطوة في إنقاذ دُنْدُن لم تكن أن يُقنعوه بكل شيء دفعةً واحدة، بل أن يُنتزع من يده ذلك السلاح السهل: أن يسبّ ويضحك ثم يهرب. ومن هنا بدأ مسارٌ جديد لا يشبه العناوين: مسارٌ يراهن على تهدئة النار قبل أن يتكلم عن بناء البيت.

الفصل السادس والعشرون

حين صار الخبر... سكونًا



بعد أن خفَّت النار قليلًا على الشاشات، عاد أثرها الحقيقي إلى المكان الذي بدأ منه كل شيء: البيت. لم يكونوا معه في غربته، لكنهما كانا معه في كل مكالمة... في كل رجفة صوت... وفي كل رجاءٍ صغير أن يكون الهدوء بداية، لا استراحة.

منذ خرج دُنْدُن من البيت لم يعد البيت يسمع صوته كل يوم، لكنه صار يسمع ظله: رسائل مقتضبة، ومكالمات قصيرة يختلط فيها الاطمئنان بالارتباك. كان الأب يسأل السؤال نفسه في كل مرة، كأنه يفتش عن نقطةٍ ثابتة في بحرٍ متحرك: كيف حالك؟ هل أنت بخير؟ هل وجدت طريقًا للعمل؟

وكانت الأم تؤخر الأسئلة الكبيرة إلى آخر المكالمة، لا حذرًا ولا دهاءً، بل بعفويتها التي تعرف متى يضيق الابن من ثقل الكلام، ومتى يحتاج أن يسمع صوتًا يخفف عنه قبل أي شيء.

كانت تبدأ كما تبدأ الأمهات دائمًا—بأبسط ما في الدنيا وأعمقه:

يا ولدي... كيف حالك؟ هل أكلت؟ هل نمت؟ هل بردت عليك الدنيا؟

ثم تسكت لحظة، كأنها تلتقط الخبر الذي وصلها وتخشى أن تخسره إن نطقته بشدة، وتقول بصوتٍ فيه فرحٌ وخوفٌ معًا:

سمعت أنك لم تعد تسبّ... سمعت أنك كففت لسانك عن المقدسات. الله يرضى عليك يا ولدي... هذا أسعدني. هكذا أريدك.

يا بني، السب لا يوصلك إلى شيء. السب يزيد القلب سخطًا، ويزيد الطريق ظلمة. دع الناس... واذكر نفسك.

لم تكن تعطيه محاضرة. كانت تخاطب فلذة كبدها، مؤمنةً أن الكلمة الطيبة قد تفعل ما لا تفعله الحجج الطويلة. ثم تمضي إلى ما يشبه "الوصايا الصغيرة" التي لا تتعلمها الأم من الكتب، بل من قلبها:

حتى إن لم تجد عملًا الآن... ابحث يا ولدي. اسأل. لا تستحِ من السؤال. اذهب إلى المسجد، يا بني... ستجد رجالًا طيبين، دلّهم على حاجتك، لعلهم يدلّونك على خير.

هل اتصلت بابن خالتك؟ هل زرت خالتك؟ زرهم يا ولدي... لعلهم ينفعونك، لعلهم يفتحون لك بابًا.

كان دُنْدُن يسمع، ويحاول أن يبدو ثابتًا. يجيب بكلمات قصيرة: نعم يا أمي... إن شاء الله يا أمي... لا تقلقي وكانت «إن شاء الله» تخرج من فمه عفوًا، كلمةٌ قد تبدو بسيطة، لكنها عند المؤمن عهدٌ مع الله وتسليمٌ لمشيئته. أما عنده فكانت بقايا نورٍ ورثه من بيتٍ مؤمن... لم ينطفئ تمامًا..

لكنه كان يشعر بشيءٍ لا يعرف اسمه. شيءٌ يزحف من الحلق إلى العينين دون إذن. دمعةٌ خفيفة—ثم أخرى—ثم صمتٌ قصير كأنه يخجل منه.

لم يكن يعرف لماذا يبكي. وهو الذي يكثر من الكلام عن إنكار الفطرة، لم ينتبه أن صوت الأم وحده يوقظ فطرةً لا تحتاج إلى برهان. أن في نبرة الأم "ذاكرة" لا يملك العقل أن يطفئها بقرار: ذاكرة الجسد الذي حمله، والرحمة التي ربته، والطمأنينة التي عاش فيها أول معنى للحياة. كأن الفطرة—كلما هرب منها—تعرف طريقها إليه من بابٍ لا يغلقه الجدل.

قال لها وهو يمسح صوته من الانكسار:

لا عليك يا أمي... لا تخافي. أنا رجل. سأجد عملًا. سأبحث، وسأسأل.

كوني هانية.

فقالت—وكأنها تلتقط هذه الجملة لتبني عليها رجاءً جديدًا:

الله يرضى عليك يا ولدي... أنا لا أريد منك إلا أن تكون بخير.
ثم أضافت، بعفوية الأم التي ترى الخير في الناس ما داموا لم يؤذوها:
سمعت كذلك عن صاحب البث الذي يناقشك... يقولون إنسان خلوق، طيب. يا ولدي اجعله قريبًا منك. إن كان عندك أسئلة فاسأله بأدب... لعل الله يجعل على يده خيرًا لك. لا تخسر الناس الطيبين.
قال: حاضر يا أمي. لا تحملي همًّا. سأغلق الآن... تصبحين على خير.
قالت: وأنت من أهله يا ولدي... الله معك.
أغلق الهاتف.
وبقيت الأم ممسكةً بالهاتف لحظات، كأن الصوت لم يغادر بعد.
ثم قامت ببطء، ودخلت غرفته القديمة. لم يكن فيها شيءٌ جديد... لكن فيها كل شيء.
فتحت خزانته، ومرّت يدها على ملابسه القديمة، كأنها تبحث في القماش عن أثرٍ منه.
أخرجت قميصًا صغيرًا كان يلبسه في صغره... شمّته دون وعي، ثم ابتسمت ابتسامةً قصيرة تكسّرها الدموع.

جلست على طرف السرير، وأخرجت علبة الصور.
تصفّحها واحدةً واحدة... حتى توقفت عند صورةٍ قديمة: دُنْدُن طفلًا، واقفًا بجانب الخروف يوم العيد، يضحك ببراءةٍ لا تعرف من الدنيا شيئًا.
نظرت إلى الصورة طويلًا... ثم ضمّتها إلى صدرها.
لم تكن تبكي لأن ما يفعله الآن يرضيها.
كانت تبكي لأن هذا الطفل... ما زال ابنها.
رغم التعب، ورغم الحيرة، ورغم الأخبار الثقيلة...
تبقى الأم ترى في ولدها ما لا يراه العالم: ترى فطرته الأولى، قبل الضجيج، قبل الشبهات، قبل كل شيء.
مسحت دموعها بهدوء، وأعادت الصورة إلى مكانها، كأنها تعيد قلبها إلى صندوقٍ صغير حتى لا ينكسر.

وبقيت الجملة الأخيرة معلقة في صدره: "الله يرضى عليك."
لم تكن حجةً مناظِرة، ولا "إفحامًا"، ولا شعارًا يُكتب في التعليقات. كانت كلمةً بسيطة... لكنها أثقل من الضجيج.

جلس وحده يفكر: ما الخطوة المقبلة؟

هل يعود إلى مطاردة الشبهات كما كان، ليهرب من هذا الإحساس الذي لا يحب أن يسميه؟

أم يقترب من الإيمان خطوةً واحدة، وهو الذي لا تزال عنده أسئلة يريد لها جوابًا؟

كان داخله شيءٌ لا يتركه على حاله:

كلما ظن أنه قطع الطريق... عاد إليه صوتٌ من بعيد، لا يشبه الجدل ولا الصراخ... صوت الفطرة.

ومن هنا لم يعد الخبر مجرد "سكون" في المنصات، بل صار سكونًا في قلبه أيضًا: سكونًا صغيرًا، لا يكفي وحده، لكنه يكفي ليقول له إن الطريق إلى النور لم يُغلق تمامًا.

الفصل السابع والعشرون

حين يهدأ الضجيج... ويظهر أثر الدفء

بعد مكالمة الأم، لم يحدث انقلابٌ واضح. لم يقل دُندُن إنه عاد، ولم يقل إنه اقتنع، ولم يعلن لأحدٍ أن شيئًا تغيّر في داخله.

الذي تغيّر كان أخفّ من الإعلان... وأثقل من أن يُنكر: تراجعٌ صغير في حدّة الصوت، وتردّدٌ قبل العبارة، وتعبٌ ظاهر من مطاردة الشبهات كما كان يفعل.

كان كأنه يريد أن يهرب من "المعارك الكبيرة" إلى مكانٍ أقل قسوة؛ مكانٍ لا يُسأل فيه كثيرًا، ولا يُطلب منه أن يقيم برهانًا لكل ما يقول.

ومن هنا بدأ شيءٌ جديد يتسلّل إلى سلوكه: لم يعد يبحث عن بثٍّ ليهدم فيه فكرة، بل صار يبحث عن بثٍّ يجد فيه من يوافق هواه.

كلما وجد بثًّا مختلطًا—مؤمنين وغير مؤمنين، منكرين ودنادنة، أصواتًا متباينة تتجاور في غرفة واحدة—ظهر دُندُن في الوسط، وطلب المداخلة كما لو أنه لا

يستطيع أن يبقى مجرد مستمع. كان يحضر كأن حضوره ضرورةٌ نفسية... لا خيارًا.

لكن العجيب أن الموضوع لا يهم.

قد يناقش الناس معنى الألم، أو حدود العقل، أو سؤال الوجود، أو تفاصيل تشريعٍ بعينه... وهو يجيء من زاوية أخرى تمامًا. يتحدثون في المشرق... فيجيب من المغرب. كأن لديه جملة واحدة تتقدم على كل الأسئلة، وتلغي كل السياقات، وتغلق كل الأبواب:

يجب أن نتخلّص من الإيمان... من هذه الأفكار القديمة... فالتقدّم لا يأتي إلا بعد أن نخلعها.

كان يكررها كمن يكرر تعويذة. لا يذكر آليةً، ولا يقدم مثالًا مضبوطًا، ولا يفرّق بين الإيمان كقيمة وبين أخطاء البشر كواقع. يختصر تاريخ الأمم في جملة، ويختصر معنى النهضة في شعار، ثم يخرج كما دخل: أكثر يقينًا في صوته... وأقل معنى في كلامه.

ومع الأيام صار واضحًا أن هذه الجملة ليست "نتيجة بحث"، بل ستار. ستارٌ يغطي به شيئًا لا يحب أن يراه أحد... وربما لا يحب أن يراه هو نفسه.

مرّت سنواتٌ وهو يتحرك كثيرًا... دون أن يصل إلى سكينة. كبرت الأيام، وبقيت الحياة كأنها لم تبدأ عنده: لا بيتٌ يستقر فيه، ولا شراكةٌ تطمئنه، ولا اتجاهٌ واضح يراكمه خطوةً خطوة. كان يرى الناس يضعون أقدامهم على أرضٍ معروفة: عمل، مسؤوليات، علاقات، خططٌ صغيرة تتراكم وتبني.

أما هو فكان يبدّل الغرف الرقمية كمن يبدّل أسماءه، ويجمع من المنصّات ما لا يصنع طريقًا.

وفي لحظةٍ ما، بدأ تعثّره الشخصي يتحول—على لسانه—إلى خطابٍ عام.

لم يعد يقول: "أنا تعثّرت."

صار يقول: "نحن متأخرون."

ثم يقفز مباشرةً إلى خاتمةٍ جاهزة، كأنها تريحه من مواجهة نفسه:

الدين هو السبب.

كان يقولها بلهجة من يظن أنه اكتشف قانون التاريخ، بينما هو في الحقيقة يصف جرحه... لا برهانه. يعمّم انكساره على مجتمعٍ كامل، ويظن الناس كلهم نسخةٌ منه: متعبون مثله، بلا اتجاهٍ ولا جذور.

مع أن الحقيقة—التي يراها ولا يريد أن يراها—أن كثيرين كانوا يعيشون: يعملون، يبنون، يتعلمون، يخطئون ويصلحون، ينهزمون ثم ينهضون.

أما هو فكان يعيش على شيءٍ واحد: أن يلتقط كلمة من هنا، وشبهة من هناك، ثم يضعها فوق تعبه كغطاء.

ولهذا كان حضوره في البثوث عجيبًا: يتكلم عن "مشاريع للأجيال" وهو لم يصلح مشروع حياته. يحدّث الناس عن "تغيير العالم" وهو لم يستطع أن يستقر في نفسه. يريد أن يضع خطةً للكون، بينما تفاصيل يومه ما تزال مبعثرة.

وكأنه—في العمق—يحاول أن يعوّض الفشل بمشهدٍ كبير: إذا لم أقدر أن أبني نفسي... فسأقفز إلى بناء خطاب.

ثم جاءت النقطة التي صارت أوضح بعد مكالمة الأم: بدأ دُندُن ينجذب إلى أي بثٍّ فيه صوت امرأة.

لم يكن الأمر بحثًا عن علمٍ ولا عن معنى. كان كأنه تذكّر وصايا البيت القديمة—الزواج، الاستقرار، الحياة التي تُعاش لا التي تُجادَل—فصار يفتش عنها في المكان الأسهل: الشاشة.

كان يتحول هناك إلى نسخةٍ أخرى.
إذا أخطأت امرأة، لا يصحح لها كما يصحح لغيرها.
إذا قالت كلامًا متهافتًا، لا يواجهه كما يواجه غيره.
يمشي مع موجتها، ويجامل، ويزيّن لها الجملة، ولو كانت على حساب الحقيقة.
ليس لأنه صار ألطف... بل لأنه صار يبحث عن قبولٍ بأي ثمن.
وكان هذا أحد أوجه مأساته: أنه لم يعد يطارد "الشبهة" وحدها، بل صار يطارد "الموافقة". يريد من يوافقه لا من يفهمه، ومن يصفق له لا من يوقفه عند حدٍّ واضح.
ومن وراء هذا كله كان يتكرر المشهد نفسه: كلما سمع سؤالًا يلزمه بمعيار، أو طلبًا لدليل، أو محاولةً لإرجاعه إلى أصل كلامه... عاد إلى الجملة التي تحفظ له مخرجًا سريعًا:
اتركوا الإيمان... اتركوا القديم... تقدّموا.
كأن الإيمان صار عنده شماعةً يعلّق عليها كل شيء: فشله، تشتته، فراغه، وحدته، حتى خيباته التي لا علاقة لها بفكرةٍ ولا بمذهب.

ومع ذلك—وهذه هي المفارقة التي تصنع معنى الكتّاب—لم يكن دُندُن شريرًا واعيًا كما يتخيل بعض الناس.

كان ضائعًا.

كان إنسانًا يتكلم كثيرًا لأنه لا يريد أن يسمع نفسه.

وكان يهجم على الإيمان لأنه لا يريد أن يقف أمام سؤالٍ واحدٍ صريح:

هل مشكلتي في "الدين" حقًا... أم في الطريق الذي تهربتُ منه طويلًا؟

وفي تلك الأيام، بدأ أثر الدفء يظهر—لا في إعلانٍ كبير—بل في شيءٍ صغير: أن السباب خفّ، وأن الشتيمة تراجعت، وأن بعض الغرف التي كانت تُقام لأجل الإهانة فقدت حرارتها القديمة... لأن سؤال الأخلاق صار يطاردها من حيث لا تشعر.

لم نقل إن الجميع تاب. ولم نقل إن دُندُن عاد.

لكننا رأينا علامةً لا تُحتقر: أن الضجيج حين يُقابل بالهدوء... يضعف. وأن من كان يعيش على الصدمة... حين يُجبر على تفسير فكرته بلا صراخ، ينكشف.

كان هذا أثر التربية على الحوار: ألا يُلاحق السباب بسبابٍ مثله، وألا يُعالج الجرح بمطرقة، وألا يُجابَه الضائع بالفضيحة... بل يُعاد كل شيء إلى السؤال البسيط: ما الذي تقول؟ وما دليلك؟ وما حدود فكرتك؟

ومع كل مرة كان دُندُن يُترك أمام هذا الميزان، كان يشعر—ولو من بعيد—بشيءٍ يطارده. ليس صوت خصم... بل صوت داخله. صوتٌ لا يحب المناظرات، ولا يعرف المصطلحات، لكنه يعرف معنى واحدًا:

أن الحياة لا تُبنى بالشعارات.

ومن هنا... يتهيأ الباب لما بعده.

لأن دُندُن، مهما ابتعد، لم يستطع أن يمنع الفطرة من أن تضيء في قلبه مرةً أخرى—ولو على هيئة تعبٍ صامت، وخجلٍ لا يصرّح به، وتردّدٍ قبل أن يقول جملته المعتادة.

وكان هذا التردّد... أول علامةٍ على أن الضجيج ليس آخر الحكاية.

الفصل الثامن والعشرون

شبهاتٌ في الدندنة



لم يكن التحوّل في تلك الأيام صاخبًا، ولا مُعلنًا كما تُعلن الانقلابات الكبيرة. كان أشبه بتبدّل اتجاه الريح: لا يراه الناس مرةً واحدة، لكنهم يشعرون أن الهواء صار يأتي من جهةٍ أخرى.

صاحب البث كان يراقب المشهد منذ مدة. يقرأ ما يتكرر، ويرى كيف تُلقى الشبهة ثم تُرمى الإجابة جانبًا، ثم تُستبدل بشبهةٍ أخرى كأن شيئًا لم يُقَل.

كان يعرف أن الردّ وحده—مهما كان قويًا—قد يصير حلقةً لا تنتهي إذا كان الطرف الآخر لا يسمع إلا صوت نفسه.

وفي ليلةٍ بدت عادية، افتتح البث بجملةٍ لم يألفها الدنادنة.

قال بهدوء: أجبنا—بفضل الله—عن أسئلةٍ كثيرة، وسنظل نجيب ما دام في السؤال أدب. لكن اسمحوا لي اليوم أن أسأل أنا أيضًا. من حقّنا أن نسأل.

ثم أضاف، وفي صوته شيءٌ من الجدية التي لا تُهين أحدًا: يا دُندُن... هل بقي عندكم شبهةٌ جديدة؟ أم هي شبهاتٌ هرِمة تُعاد، كأن الزمن لا يتغير؟

كانت الكلمة وحدها كافية لتوقظ انتباه المستمعين. لأن كثيرين اعتادوا أن يكون المؤمنون دائمًا في موضع الدفاع، وأن يكون الدنادنة دائمًا في موضع الإلقاء. أما الليلة، فقد تغيّر موضع الحديث.

قال صاحب البث أمام الجميع: لدينا نحن أيضًا "شبهات" في الدندنة نفسها.
لا نقولها شماتةً، ولا نطلب بها خصومة. نقولها لأننا تعبنا من الدوران. إن كنتم تسألون كل يوم، فمن العدل أن تُسألوا يومًا.

ثم وضع شرطًا واحدًا، كأنه يضع سياجًا يحفظ المجلس: الأدب.

بعدها لم يبدأ بتفاصيل كثيرة، بل بثلاثة أسئلة واضحة، كأنها مفاتيح:

أولًا: يا أهل الدندنة... ما الذي وجدتموه في الدندنة جميلًا، مريحًا، عظيمًا—ولم تجدوه في الإيمان؟

ثانيًا: ما مرجعيتكم الأخلاقية؟ كيف تحكمون أن هذا حسنٌ وهذا قبيح؟ أن هذه قيمةٌ وتلك رذيلة؟ إذا لم يكن هناك ميزان، فبأي شيء تُوزَن الكلمات؟

ثالثًا: تعيبون على المؤمن أنه يقول: خالقي الله. فهل تستطيعون أن تجيبونا: من خلقكم؟

ثم قرأ بصوتٍ ثابت، بلا تحدٍّ جارح:

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾

وسكت قليلًا، لا ليحرج أحدًا، بل ليترك السؤال يأخذ حقه من الصمت.

قال بعدها: الليلة هذا البث خاص. من كان منكم شجاعًا في دندنة الشبهات، فليطلب الجيست ويجيب. لا نريد سبًّا ولا استهزاء. نريد جوابًا واحدًا واضحًا.

مرّت لحظات، ولم يظهر أحد. بدأ بعض المشاهدين يكتبون: أين الدنادنة؟ أليس فيكم من يجيب كما كنتم تسألون؟

ابتسم صاحب البث ابتسامةً خفيفة وقال: أرأيتم يا مشاهدينا؟ كلما سألونا وجدونا أمامهم نجيب. واليوم حين سألنا... صار الصمت هو الجواب.

ثم رفع صوته قليلًا، لا ليصرخ، بل ليخاطب الغائبين: أخرجوا إلينا دُندُنكم. أخرجوا من يكثر الكلام حين يسأل، ويختفي حين يُسأل.

عندها ظهر دُندُن.

طلب الجيست كما لو أنه لا يحتمل أن يُقال إنه هرب. دخل وقال بسرعة: ها أنا ذا. سأجيبك عن سؤال واحد.

قال صاحب البث: أهلاً بك يا دُندُن. سؤالنا واضح: من خلقكم؟

ضحك دُندُن ضحكةً قصيرة، كأنه يريد أن يصنع من السؤال مادةً للمراوغة، ثم قال: أنا أزلي.

قال صاحب البث بهدوء: جميل. هذا اسمُ جواب، لكن ما معنى "أزلي" عندك؟ أريد أن أفهم، لا أن أتعجب. ما الذي تقصده بالأزلية؟

قال دُندُن: أنت تستغرب أنني أزلي؟ إذا استبعدتَ أزليتي، فلماذا تقبل أزلية الله؟

قال صاحب البث: على مهلك. قبل أن ننتقل إلى أي شيء آخر... أنت لك بداية في هذه الدنيا. لك شهادة ميلاد، يوم وشهر وسنة. في أي سنة وُلدت؟

تهرّب دُندُن وقال: لا يهم.

قال صاحب البث: لنفترض أنها 1990 أو 1995 أو 1985... هذه بداية. والأزلي لا بداية له. فكيف تكون أزليًا وقد بدأت؟

ارتبك دُندُن، ثم قفز قفزته المعتادة: لا، الكون أزلي.

قال صاحب البث: وأنا هل سألتك عن الكون؟ سؤالي لم يكن "من خلق الكون". سؤالي كان "من خلقكم". أنت تغيّر السؤال لأنك لا تريد أن تجيب.

شعر دُندُن أن الأرض تضيق، ففتّش عن مخرجٍ آخر. قال بسرعة: قرآنكم نفسه فيه دليل أن هناك خالقين غير الله! ربكم يقول: "أحسن الخالقين". من هم الخالقون الآخرون؟

ثم بدأ يقرأ الآية على عجل، فاختل لفظه واختلط المعنى.

هنا تدخّل التمسّاماني بصوتٍ هادئ، كأنه يضع يدًا على كتف السؤال حتى لا يسقط في الفوضى: يا دُندُن... على مهلك. من حقك أن تسأل، ومن حقك أن تجيب. لكن أعطِ الآية حقها. هذا كلامٌ نتعبد به، فإذا قُرئ خطأً تغيّر المعنى، ثم صار الخطأ حُجّةً على صاحبه.

قال دُندُن بضيق: لا يهمني. أعدها أنت.

أعادها التمسّاماني بلفظٍ صحيح، وأدبٍ واضح:

﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾

ثم سأل: ماذا تريد أن تقول بها يا دُندُن؟

قال دُندُن: أقول إن هناك خالقين آخرين... ولهذا قال: أحسن الخالقين.

ابتسم التمسّاماني ابتسامةً صغيرة، لا تستهزئ به، بل تُشبه ابتسامة الأب حين يرى ابنه يظن أنه أمسك بالحقيقة من طرفها. قال: يا ولدي... أنت تفتقر

إلى أدوات اللغة، وهذا ليس عيبًا، لكن العيب أن تبني على ذلك حكمًا كبيرًا.

الخلق في اللسان لا يُستعمل دائمًا بمعنى خلق الوجود من العدم. قد يأتي بمعنى التقدير والصنع والتصوير. الإنسان "يخلق" على هذا المعنى: يصنع شيئًا، يشكّل مادةً موجودة، يقدّر شكلًا، يبني بناءً... لكنه لا يخلق روحًا من عدم، ولا يُوجد حياةً من فراغ.

أما الخلق الذي لا يشاركه فيه أحد—خلقُ الابتداء والإيجاد والإحياء—فذلك لله وحده. فإذا قيل: "أحسن الخالقين" فليس معناه آلهة كثيرة، بل معناه أن الله أحسن من يقدّر ويبدع ويصوّر، وهو الخالق على الحقيقة، وغيره إنما يصنع من مخلوقاته.

سكت دُندُن قليلًا. كان واضحًا أنه لم يكن مستعدًا لهذا المستوى من الشرح، حتى وهو هادئ. ثم قال بحدّةٍ يريد بها أن يهرب: أنتم لا تتقنون إلا الترقيع.

قال التمسّاماني بتواضعٍ يطفئ النار ولا يزيدها: سمّه ترقيعًا، أو سمّه خياطةً، أو سمّه ما شئت... أنا لا أجادلك لتغلبني ولا لأغلبك. أنا فقط أنبّهك: إذا اختلط اللفظ اختلط المعنى. وإذا اختلط المعنى، صار الكلام كله دندنة.

التفت صاحب البث إلى دُندُن مرةً أخرى، وترك الآية في مكانها الصحيح، ثم عاد إلى أصل الليلة: نحن سألناك سؤالين واضحين يا دُندُن. مرجعيتكم الأخلاقية... ومن خلقكم. وأضفنا سؤالًا ثالثًا: ماذا وجدتم في الدندنة ولم تجدوه في الإيمان؟

عندها عاد التمسّاماني بلطف: هذا السؤال يعجبني أكثر بالنسبة لك يا دُندُن. أفدنا يا ولدي: ماذا وجدت في الدندنة أفضل ولم تجده في الإيمان؟

قال دُندُن جوابًا كأنه خرج من فم التعب لا من فم البحث: ارتحت من الصلاة... لا أحمل هم الصلاة. وارتحت من الوضوء.

تسللت ابتسامةٌ قصيرة رغم محاولة الوقار. لم تكن سخريةً من شخصه، بل دهشةً من أن الجواب الذي قُدّم بوصفه "اكتشافًا" لم يكن إلا تخلّصًا من تكليف.

قال التمسّاماني: الصلاة التي تقول إنك ارتحت منها... كان يقول عنها النبي: "أرحنا بها". والطهارة التي تقول إنك ارتحت منها... تحبها الفطرة لأن فيها نقاءً ونظافةً وانضباطًا.

ثم قال صاحب البث بهدوء: أفهم أنك تركت الصلاة. لكن دعنا نفهم جوابك عن الوضوء.

هل تريد أن تقول إن في الدندنة لا وضوء لكم؟ لا معنى للطهارة عندكم؟ لا فرق عندكم بين النجاسة والطهارة؟

انتفض دُندُن وقال بغضب: هل تظنون أن من خرج من الإيمان لا يستحم ولا يتطهر؟ هل تظنون أننا لا نغتسل؟ نحن نستحم ونغتسل ونتوضأ!

قال صاحب البث: إذن عدنا إلى السؤال الأول.

إذا كنت تستحم وتتطهر... فما الذي وجدته في الدندنة ولم تجده في الإيمان؟

الإيمان فيه طهارة، وفيه نظافة، وفيه وضوء. وأنت تقول إنك تفعل ذلك أيضًا.

فأين هو "البديل" الذي خرجتَ لأجله؟ أم أنك قلت كلمةً ثم رجعت تنفيها؟

سكت دُندُن لحظة، ثم حاول أن يهرب إلى السؤال الأكبر مرةً أخرى.

فقال صاحب البث: بالله عليك يا دُندُن... كن صادقًا مع نفسك قبل أن تكون مع غيرك. بالنسبة لك: من خلقك؟ كيف جاء البشر إلى هذه الدنيا؟ أتظن أنهم جاءوا من لا شيء؟

قال دُندُن: أنا لا أعلم. العلم لم يصل بعد إلى من خلقنا. أنا منتوج طبيعي... من خلقة الطبيعة.

قال صاحب البث: الطبيعة؟ دعنا نفهم.

هل للطبيعة عين؟ قال: لا.

هل للطبيعة أذن؟ قال: لا.

هل للطبيعة عقل؟ قال: لا.

قال صاحب البث بهدوءٍ يقرّب المعنى ولا يرفعه: كيف لشيءٍ لا عين له ولا أذن ولا عقل... أن يمنحك عيناً وأذنًا وعقلًا؟

فاقدُ الشيء... لا يعطيه.

لم يجب دُندُن. كان كأنه يدور في داخله بين رغبةٍ في الكلام ورغبةٍ في الهرب. ثم قال فجأةً: والله سأترككم. أنا تعبان اليوم. سامحني يا تمسّاماني، وسامحني يا صاحب البث. مرةً أخرى سنتحدث.

خرج من الجيست، وبقيت الغرفة لحظةً صامتة. ليس صمتَ انتصارٍ ولا شماتة، بل صمتُ من رأى مثالًا حيًّا على معنى بسيط: أن الدندنة تتعب... لأنها تعيش على السؤال حين يكون في صالحها، وتنهار حين تُطلب منها إجابة.

قال صاحب البث في النهاية بصوتٍ هادئ: يا إخوتي... نحن لا نفرح بتعب أحد. لكننا نحب أن تنكشف الفكرة كما هي. إذا أردتم الحوار، فالأدب شرط، والجواب مسؤولية. سنظل نجيب—بإذن الله—وسنظل نسأل أيضًا، لأن السؤال حق.

ثم ختم بخاتمةٍ تشبه قنطرة لما بعده: نستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه. وإلى لقاءٍ قادم... حين نرى ماذا فعلت "شبهات الدندنة" في الغرف التي كانت تعيش على الضجيج.

الفصل التاسع والعشرون

حين انكسرت الأسلحة... وبقي السؤال



لم يسقط دُندُن فجأة.

سقطت أدواته... واحدةً بعد أخرى.

كان أول سلاحٍ عنده: الصدمة. كلمةٌ جارحة، ونبرةٌ عالية، وسبابٌ يظنّه شجاعة. لكنهم لم يردّوا عليه بمثله. وضعوا شرطًا بسيطًا: الأدب. ومع هذا الشرط... خرج السلاح الأول من يده.

ثم جرّب سلاحًا ثانيًا: "رشّاشة الشبهات". يلقي سؤالًا وراء سؤال، لا ليبحث، بل ليُتعب. لكن الشبهات حين تتكرر تُعرف قبل أن تُقال. وصار يُسأل: هل عندك جديد... أم شبهاتٌ هرِمة تُعاد؟

ثم جاءت الخطة التي لقّنوه إياها: ادخل من باب المرأة. اتّهم الإيمان، واصنع غضبًا سريعًا، واطلب التصفيق. ففعل. لكن الباب الذي ظنّه طريقًا للهدم... صار طريقًا للميزان.

كلما تكلم قيل له: أترضاه لأهلك؟ ليس لإحراجه... بل ليعود إلى العدل. فكان يغضب، لأن السؤال يكشف التناقض بلا صراخ.وحين فهم أن الغضب وحده لا يكفي، بدأ يبحث عن مجالس "تحميه". ينتقل من بثٍّ إلى

بثّ، مهما كان الموضوع، ثم يُدخل الدين فجأةً، ويطلب الكلمة. لا ليُقيم فكرة... بل ليسمع عبارةً واحدة:

تحياتي لك... أحسنت.

كانت كلمة الثناء تُنعشه لحظات، ثم يعود بعدها فارغًا كما كان.

لكن حتى هذا السلاح الأخير ضعف. لأن سؤالين صارَا يطاردان الدندنة أينما ذهبت: ما مرجعيتكم الأخلاقية؟ ومن خلقكم؟

سؤالان بسيطان... لكنهما لا يتركان للضجيج مكانًا. ومعهما بدأت أسلحة دُندُن تنفد: لا السباب نافع، ولا كثرة الشبهات تُخيف، ولا المجاملة تُغني عن جواب.

فأخذ دُندُن استراحةً قصيرة، وغاب أيامًا. وقال صاحب البث بهدوء: لعلها خير.

لكن الغياب لم يُطفئ الأسئلة. بل جعل بعض الدنادنة يفكرون بطريقةٍ أخرى: إذا كنا لا نستطيع الإجابة... فلنحاول إسقاط السؤال من أصله.

ومن هنا بدأ ما كانوا يتهامسون به في الخلف: بحثٌ أكبر، لا عن شبهةٍ عابرة، بل عن فكرةٍ يريدون بها نفي الخالق نفسه.

وكان هذا هو الفرق:

حين تنهار الأدوات الصغيرة... يبدأ الهروب الكبير.

ومن هنا... يبدأ القادم.

الفصل الثلاثون

حين سقطت الشعارات... قبل أن يولد الإيمان



لم يبدأ تغيّر دُندُن من فكرةٍ عقدية، ولا من برهانٍ ساطعٍ ظهر له فجأة، بل بدأ من الناس. وهذه نقطةٌ لا ينتبه لها كثيرون. بعد تلك الأسئلة التي ضيّقت عليه—سؤال الأخلاق، وسؤال الخالق—أخذ دُندُن قسطًا من صمت. غاب أيامًا عن البثوث، ثم عاد... لكن بصورةٍ لم يألفها المتابعون. دخل بعض الغرف كما يدخل رجلٌ يريد أن يختبر نفسه قبل أن يختبر الآخرين. لم يطلب الكلمة كما كان يفعل، ولم يقفز إلى الجدال، ولم يرمِ "رشاش الشبهات". كان يجلس طويلًا مستمعًا، فإذا قيل له: تفضّل يا دُندُن، هل عندك مداخلة؟ قال بهدوء: مرّر... مرّر. أنا مشغول قليلًا. أستمع لكم. لم يسبّ، ولم يضحك على أحد، ولم يحاول أن يسرق المشهد. كان كأنه يجرّب لأول مرة أن يبقى بلا سلاح.

وهنا حدث ما لم يتوقعه. المعسكر الذي احتمى به طويلًا—المعسكر الذي كان يرفع الرايات الكبيرة—لم يحتمل هذا الهدوء، ولم يحتمل أن يتغير دُندُن ولو قليلًا، ولا أن يتراجع خطوةً عن الصورة التي صنعوها له. طوال سنواتٍ كان الخطاب محفوظًا: الحرية، حرية الاعتقاد، حرية التعبير، لا قداسة فوق السؤال، الإنسان أولًا. كانت كلماتٍ تتكرر حتى تبدو كأنها حقائق، وكانوا

يقدمون أنفسهم بوصفهم نقيض "المؤمنين المقيدين"، ويزعمون أنهم خرجوا من الوصاية إلى فضاءٍ أوسع.

لكن دُندُن حين خفّف حدته، وحين توقف عن الإهانة، وحين صار يُصغي بدل أن يهاجم... لم يُقابل بالتقدير الذي يتغنون به. قوبل بالريبة. لم يناقشوه على مهل، ولم يسألوه: ماذا حدث؟ بل هاجموه كأنه خان الجماعة، وسخروا منه كأنه تراجع، وضيقوا عليه كأنهم لا يريدون له أن يفكر خارج ما رسموه له. وهنا وقع الاكتشاف الذي أوجعه أكثر من أي مناظرة: أن "الحرية" التي تغنّوا بها... كانت مشروطة، وأن "حق السؤال"... مسموحٌ ما دام موجّهًا إلى المؤمنين فقط، وأن من يرفضون الوصاية... يمارسونها حين يخافون.

لم يكن دُندُن قد عاد إلى الإيمان، ولم يكن قد امتلك شجاعة الرجوع بعد، لكنه بدأ يرى شيئًا لم يكن يريد أن يراه: أن كثيرًا من الشعارات ليست أخلاقًا، بل أدوات. تُرفع في الصراع، ثم تُسقط عند أول اختبار. فهم أن بعض الحديث عن المرأة والحقوق والجسد—عند فئةٍ منهم—لم يكن بحثًا عن

عدلٍ صادق، بل ستارًا جميلًا لفراغٍ أعمق، وأن ما يُسمّى "تحررًا" قد يصير أحيانًا تبريرًا لسقوطٍ لا يريدون الاعتراف به.

وسقطت داخله ثقةٌ كانت تحمل كثيرًا من اندفاعه. ليس سقوطًا إلى الإيمان... بعد، بل سقوطُ ثقة. سقطت ثقته في الجماعة، وفي نقاء الدوافع، وفي صدق الكلمات التي كانت تبدو مثل مبادئ. وفهم—لأول مرة—أن الإنسان قد يهرب من الدين باسم الحرية... ثم يُستعبد لشعاراتٍ لا تقل قسوة، ولا تقل إغلاقًا.

وهنا وقف دُندُن في منتصف الطريق: لا منتميًا إلى الإيمان بعد، ولا قادرًا على العودة إلى الكذب القديم. وكان هذا المكان... أخطر من الشكّ نفسه.

الفصل الواحد والثلاثون

حين بدأ البحث... وظهر الوجه الآخر للهدوء

لم يكن الهدوء الذي دخل به دُندُن إلى الأيام الجديدة هدوءَ اقتناعٍ كامل، ولا هدوءَ توبةٍ مُعلنة. كان هدوءَ إنسانٍ تعلّم—متأخرًا—أن للكلمة ثمنًا، وأن من يرفع صوته دون دليل... سيُسأل، ثم يُسأل، ثم يُترك وحيدًا مع فراغه.

في إحدى الليالي كان صاحب البث قد دعا ضيفين من أصحابه: مصطفى ومبارك. لم يكن المجلس مشحونًا كالمعتاد. موضوعٌ عام، وأحاديث هادئة، وأصواتٌ لا تجرّح أحدًا. ثم ظهر اسمٌ لم يعد الناس يتوقعون أن يراه بهذا الشكل: دُندُن.

كتب تحيةً قصيرة، ثم جلس صامتًا دقائق. لم يرمِ شبهة، ولم يجرّ طرف الحديث إلى خصومة. كتب الرقم الذي يعني أنه يطلب المشاركة، ثم انتظر— كأنه يخاف أن يفسد الهدوء بمجرد الكلام.

كان تغيّرًا يُرى من بعيد.

قال صاحب البث بعد برهة: تفضّل يا دُندُن، هل عندك مداخلة؟
قال دُندُن بهدوء: مرّر... مرّر. أنا أستمع لكم الآن.
لم تكن العبارة وحدها هي المدهشة، بل ما وراءها: لأول مرةٍ يبدو دُندُن كأنه يفكر قبل أن يتكلم، لا كأنه يبحث عن فرصةٍ ليُطلق ما حفظه.
هنا التفت مبارك إلى المشهد بوجهٍ لا يسخر ولا يصفّق، بل يقرأ. قال بهدوءٍ يطمئن ولا يضغط: يا دُندُن، اختلافنا معك لا يعني أن تصمت. من حقك أن تتكلم، ومن حقك أن تسأل، لكن الجميل في هذه الأيام أنك صرتَ تهدأ قبل أن تردّ. هذا تغيّرٌ لا يُحتقر.
ثم أضاف بصوتٍ أقرب إلى النصح النفسي منه إلى الجدل: الإنسان حين يغضب كلما سُئل، لا يكون دفاعه عن فكرة فقط... يكون دفاعه عن نفسه. الغضب السريع علامة توترٍ داخلي، لا علامة قوة. أما أن تجلس وتسمع، وأن تسأل بأدب، وأن تنتظر الجواب... فهذا باب خير. ليس لأننا نريدك "تابعًا" لنا، بل لأنك أنت أول المستفيدين من ضبط نفسك.
لم يرد دُندُن كثيرًا. اكتفى بكلماتٍ قليلة: أنا لا أريد مشاكل. أنا فقط أسمع.

قال مبارك: وهذا بداية جيدة. لأن الذي يتعلّم الاستماع... يتعلّم التفكير. والذي يتعلّم التفكير... يقلّ ظلمه لنفسه ولغيره.

سكت المجلس لحظةً، ثم انتقل مصطفى إلى لبّ المشكلة التي صارت تطارد الدنادنة في كل غرفة. لم يقلها بصيغة تحدٍّ، بل بصيغة تفسير للناس الذين يتابعون ولا يفهمون لماذا تغيّر المشهد.

قال: هناك سؤالان جعلا كثيرًا من الدنادنة يضطربون. ليس لأنهما معقدان، بل لأنهما بسيطان، ويطلبان جوابًا واضحًا. الأول: ما مرجعيتكم الأخلاقية؟ والثاني: من خلقكم؟

ثم وضّح بعباراتٍ سهلة: من يرفض الإيمان قد يملك اعتراضات كثيرة، لكن عندما يُسأل: "بأي معيار تقول هذا خير وهذا شر؟" يتفرق الناس عنده. بعضهم يقول: لا أدري... ويقف عند "اللاأدرية". بعضهم يقول: لا خالق... وكأن المسألة انتهت. وبعضهم يقول: ربما هناك خالق... لكن ليس كما يصفه الدين. تتعدد الأسماء، لكن المشكلة واحدة: أن الإجابة غالبًا لا تبني ميزانًا يعيش به الإنسان، ولا تفسّر لماذا تُحترم كرامة الإنسان أصلًا إذا صار كل شيء بلا معنى أعلى من المزاج.

ثم قال مصطفى: وسؤال "من خلقكم؟" أصعب مما يبدو. لأن كثيرًا منهم لا يريد أن يقول: "لا أدري" صراحة، فيستبدلها بكلمةٍ واسعة مثل "الطبيعة". لكن الطبيعة اسمٌ لما نراه من نظامٍ وقوانين. والسؤال يبقى: من أين جاء النظام؟ ومن أين جاءت القوانين؟ وكيف ظهر العقل داخل عالمٍ يُقال عنه إنه بلا قصد؟ لا نطلب منهم أن يصدقوا في لحظة، نطلب فقط أن يجيبوا بصدق.

كان الكلام يمرّ بهدوء على الأسماع. لا صراخ، ولا تجريح. مجرد وضع الأسئلة في مكانها الطبيعي، وكشفِ أن الهروب منها هو الذي صنع كثيرًا من الضجيج.

وفي طرف الشاشة كان دُندُن صامتًا. كأنه يسمع للمرة الأولى حديثًا لا يريد أن يهزمه، بل يريد أن يضع له مرآة. وحين طُلب منه أن يتكلم قال: أنا... لا أدري. ثم عاد إلى الصمت.

لم يكن هذا "نصرًا" لأحد. كان لحظة صدقٍ صغيرة، لكنها صعبة على من اعتاد أن يعيش على يقينٍ مرتفع بلا أساس.

غير أن الهدوء في العلن لم يكن يعني أن المعركة انتهت في الخفاء. لأن الذين كانوا يلقنون دُندُن الخطط أدركوا شيئًا مرعبًا بالنسبة لهم: أن سؤال الأخلاق وسؤال الخالق لن يختفيا، وأنهما يلاحقانهم أينما ذهبوا، وأن مجرد تغيير الأسلوب لم يعد كافيًا.

وهنا بدأ "البحث الكبير" فعلًا.

بدأ بعضهم يجمع موادّ طويلة، ويركض وراء أي ثغرة، لا ليجيب عن السؤالين، بل ليُسقط السؤال من أصله. إذا لم نستطع أن نجيب عن "من خلقكم؟" فلنحاول أن ننفي وجود الخالق كله. وإذا لم نستطع أن نبني ميزانًا للأخلاق، فلنقل إن الأخلاق مجرد شعور... وينتهي الأمر.

كان هذا انتقالًا خطيرًا: من دندنةٍ متقطعة... إلى مشروعٍ يريد أن يبدو "علمًا".

أما دُندُن، فكان في مكانٍ أضعف من أن يقود هذا البحث، وأشدّ ضعفًا من أن يواجه نتائجه. كان مجرد اسمٍ يعرفه الناس، وصوتٍ يمكن أن يُستعمل. ولهذا كان الهدوء الذي ظهر عليه في المجلس... لا يمنع أن تُدار خلفه خططٌ أكبر منه.

ومن هنا... يبدأ الفصل الذي بعده.

لأن البحث حين يبدأ في نفي الألوهية... لا يعود مجرد نقاشٍ عابر، بل امتحانٌ طويل: لمن يطلب الحق، ولمن يطلب الهروب.

الفصل الثاني والثلاثون

حين دخلوا الجذر... ولم يعودوا كما كانوا

لم يكن الصمت الذي خيّم على تلك الفترة صمتَ راحة، ولا صمتَ نهاية.

كان صمتَ اشتغالٍ في الخفاء. كأن أحدًا قال بصوتٍ لا يُسمَع: توقّفوا عن الأسئلة الصغيرة... لا تجيبوا عن الأخلاق، ولا عن "من خلقكم"، ولا عن السببية... قولوا فقط: لا أدري. وانتظروا.

كان دُندُن واحدًا ممن انتظروا.

صار يظهر في بعض البثوث بهدوءٍ غير مألوف، كأنه يريد أن يثبت لنفسه قبل الناس أنه تغيّر. لا يتهجّم، ولا يسبّ، ولا يستهزئ. يجلس مستمعًا أكثر مما يتكلم، وإذا أُعطي الكلمة قال: مرّر... أستمع. لكن هذا الهدوء لم يكن جوابًا عن السؤال، بل هدنةً مؤقتة. وكان داخله شيءٌ يلحّ عليه دون أن يعترف: لماذا طال الغياب؟ أين "النتيجة" التي وُعدنا بها؟

في الجهة الأخرى، اتخذت قلّةٌ قرارًا مختلفًا: أن يذهبوا إلى الجذور. لم يعودوا يريدون شبهةً تُلقى ثم تُنسى، ولا مقطعًا يُصفّق له ثم يذوب. أرادوا ضربةً

تنهي كل شيء من أصله: أن يُسقطوا فكرة الخالق نفسها، فتسقط معها الأخلاق والغاية والمعنى... ويصير السؤال الكبير مجرد أثرٍ قديم في ذاكرة البشر.

لكن القرار— كما تبيّن لاحقًا— لم يكن قرار جماعة. كان قرار قِلّة. أما الأكثرون فبقوا كما هم: ينتظرون. لا يقرأون، ولا يتعمقون، بل يترقبون عودة "الكبار" بحُجّة جاهزة. ودُندُن كان بينهم: لا يريد أن يحمل ثقل هذا الباب، لأن هذا الباب أكبر منه. كان يريد نهايةً مختصرة، خاتمةً سريعة، كلمةً يقولها ثم يخرج: انتهى النقاش.

ومن بين من دخلوا البحث فعلياً، برزت امرأة كانت معروفة في ذلك الوسط بحدّة الصوت وسرعة السخرية. كانت تُقدَّم للآخرين كمرجعٍ لا يُسأل كثيرًا، وتُتبع كلماتها لأنها تُقال بثقة. دخلت البحث وهي تظن أنها ستعود بشيءٍ يُسكت السؤال، لا لأنها أحبّت الحقيقة، بل لأنها أرادت أن تُغلق الملف.

امتدت رحلتها ثمانية عشر شهرًا، مقسّمةً على ثلاث مراحل، كل مرحلةٍ ستة أشهر، كأن الزمن نفسه كان يُعلّمها ببطء أن هذا الباب لا يفتح لمن يريد أن يمرّ راكضًا.

في الأشهر الستة الأولى، كانت تبحث عن نفي الألوهية كما يبحث المحارب عن ثغرة. فتحت كتبًا وقرأت صفحاتٍ كثيرة، ووجدت بين ما قرأت كتبًا لشيخ الإسلام، تخاطب العقل بصرامةٍ لا تعرف المجاملة. ظنت في البداية أن هذا هو الطريق الذي سيمنحها "الحجة"، لكنها اصطدمت بلغته ومصطلحاته. كانت كلماتٌ أكبر من مخزونها، ومفاهيم تحتاج أدواتٍ لم تكن تملكها. لم تُعلن تراجعًا، لكنها لم تستطع أن تُعلن انتصارًا. فقط... ازدادت حيرتها.

ثم جاءت الستة أشهر الثانية، وفيها ظهر عنادها. قالت في نفسها: لن أتراجع لأنني لم أفهم. سأفهم أولًا، ثم أُحاكم. فبدأت تبحث عن معاني المصطلحات، وتفكّك العبارات، وتعيد القراءة مرةً بعد مرة. كانت تريد أن تصل إلى نتيجة تُريحها، لكنها بدأت تلاحظ شيئًا لم تكن تريده: كلما فهمت أكثر، لم تتسع الثغرة... بل ضاقت. كأن الفكرة التي دخلت لتكسرها

كانت تُمسك بعقلها من الداخل. لم يكن الأمر وعظًا، ولا ضغطًا عاطفيًا، بل ترتيبًا صارمًا للأسئلة: من أين جاء هذا الوجود؟ وكيف يقوم المتغيّر بذاته؟ وأين يذهب العقل إذا ظل يؤجل البداية بلا نهاية؟

وفي هذه المرحلة بالذات بدأ شيءٌ يوقظها من الداخل. لم يكن صوت جمهور، ولا تصفيق بثّ، ولا خصومة. كان شيءٌ هادئ يقول لها: أرأيتِ؟ ربما كان المؤمنون على حق. لكنها لم تكن تريد الاستسلام. كانت تخاف أن يكون الاعتراف هزيمةً بعد سنواتٍ من الضجيج.

ثم جاءت الستة أشهر الأخيرة... وهنا تغيّر كل شيء.

اختفت المرأة غيابًا تامًا. لا بثوث، لا تعليقات، لا صدامات. كأنها انسحبت من الضجيج لتسمع ما لا يُسمَع في الغرف. كان من حولها يفتقدونها، ويتهامسون: أين ذهبت؟ ماذا حدث؟ لماذا تأخَرت "النتيجة"؟

وكانت الدنادنة ينتظرون منها كلمةً واحدة تعيد لهم الثقة: وجدنا الثغرة.

ودُندُن كان يراقب مثلهم. ينتقل بين بثٍّ وبثّ، صامتًا أكثر من عادته، يبتلع أسئلته، ويكرر في داخله: متى يعودون؟ متى يقولون لنا: انتهى؟

لكن الذي حدث لم يكن كما أرادوا.

حين عادت المرأة إلى الكلام—لم تعد تلك المرأة التي دخلت لتُسقط أصل الفكرة. كانت قد وصلت بعقلها إلى يقينٍ لم تستطع أن تدفعه بسخرية، ولا أن تؤجله بشعار. وحين سألها صاحب البث في لقاءٍ هادئ: ما الذي وقع لكِ؟ ما الذي أثّر فيك؟ لم تتحدث عن انتصار، ولم تتحدث عن خصم. تحدثت عن رحلةٍ طويلة انتهت إلى صدقٍ مُرهق.

قالت إن بدايات الميل كانت قبل ذلك، لكن لحظة اليقين التي دفعتها إلى الرجوع العملي... كانت يوم عرفة. يومٌ انكسر فيه الضجيج داخلها، فصار القلب أخفّ من أن يواصل العناد. ولم تفتح باب التفاصيل—لأن لكل قصةٍ مقامًا—لكنها قالت ما يكفي ليعرف السامع أن الأمر ليس "لقطةً" ولا رغبةً في الظهور... وفي الخلفية، كان دُندُن صامتًا.

صمته هذه المرة لم يكن تهذيبًا، بل ثقلًا. لأن النتيجة التي انتظرها طويلًا لم تأتِ شبهةً كما حلم... بل جاءت سؤالًا جديدًا يطرق قلبه وهو يحاول الهرب: إذا كانت رحلة النفي نفسها انتهت إلى الإيمان... فإلى أين يذهب المنتظرون؟

ومن هنا... يبدأ ما بعد النتيجة.

الفصل الثالث والثلاثون

حين خافت من النور... ثم اختارت الصدق



لم تكن المفاجأة في أن امرأةً رجعت إلى الإيمان؛ فالهداية ممكنة، وإن طال الطريق.

المفاجأة كانت في ما يحدث بعد الهداية... حين يصبح القلب أمام سؤالٍ آخر لا يقل ثقلًا عن السؤال الأول:

أأختفي؟

أأصمت؟

أأهرب من وجهي القديم... أم أواجهه؟

كانت قد وصلت إلى الحقيقة بعقلها، ثم استقرّت في قلبها. لكن أول ما شعرت به لم يكن الفرح، بل الخجل. تذكّرت كلماتٍ قالتها يومًا واستهزأت بها. تذكّرت ضحكاتٍ خرجت منها وهي تسخر من المؤمنين، وتجرّأت على ما لا ينبغي أن يُمسّ بسخريةٍ ولا بتحدٍّ.

والآن... كيف تعود إلى الله الذي كانت تستهزئ به؟

كيف تقف بين الناس وهي تعرف أن بعضهم سمع منها ما يؤلم؟

كيف تنظر إلى المؤمنين الذين كانت تُهينهم، فإذا بهم صاروا إخوانها في الدين؟

لم يكن صراعها صراع صورةٍ أمام الجمهور فقط، بل صراع ضمير. عقلها يقول: انسحبي بصمت، لا تخبري أحدًا، كأن شيئًا لم يكن.

لكن ضميرها كان يردّ عليها بصرامةٍ هادئة: ما كنتِ تقولينه لم يكن خفيفًا. والكلمة حين تُطلق لا تعود كما كانت. إن كنتِ قد أخطأتِ على الملأ... فهل يكفي أن تتوبي سرًّا ثم تختفي؟

ولأنها لم تعد تريد أن تزيد ظلمًا فوق ظلم، فعلت أول خطوةٍ لم تكن تتخيلها في زمن السخرية: استشارت.

ذهبت إلى شخصٍ مؤمن معروفٍ في هذا العالم المفتوح، لا لتطلب منه مديحًا، ولا لتبحث عن حمايةٍ من الناس، بل لتسأله سؤال الخائف الذي يريد النجاة:

ماذا أفعل؟

أخشى أن يهاجموني، أن يعيّروني، أن يفتحوا عليّ باب الماضي.

أجابها بهدوءٍ لا يُشبه جدل المنصّات: لا تخافي.

قال لها إن من يستهزئ بتوبة صادقة لم يذق بعد معنى الإيمان كما ينبغي. وإن هذا الدين لا يبني نفسه على تحطيم التائب، بل على فتح الباب له. قال

لها إن الإسلام يجبّ ما قبله، وإن الله يقبل التوبة، وإن المؤمنين—إذا رأوا الصدق—فرحوا ولم يفضحوا. ثم قال كلمةً كانت أثقل من كل محاجّة: لا تختفي... لأن اختفاءك سيترك من سمعوا منك السخرية يظنون أن الطريق لم يتغيّر، وأن الضجيج كان أصدق من الحقيقة.

كانت تلك اللحظة كأنها مفترق جديد:

إما أن تنجو بنفسها وتترك أثرها القديم يتيه في الناس،

أو أن تتحمّل ثمن الصدق... وتردّ جزءًا من الأمانة.

اختارت الصدق.

وحين ظهرت في حديثٍ مسموع مع صاحب البث، لم تدخل لتنتصر، ولم تدخل لتنتقم من أحد. جاءت لتقول ببساطة: أخطأت... وتبت. وكانت تذكر—من غير إسهاب—أن الله الذي سخرت منه يومًا صار أحبّ ما في قلبها اليوم، وأنها تستحيي من ماضيها أكثر مما تخاف من الناس.

سألها صاحب البث أمام الملأ، لا ليحرجها، بل ليجعلها قدوةً لمن كانوا يتبعونها: لماذا لم تكتفي بالانسحاب؟ ولماذا اخترتِ أن تتكلمي؟

قالت إنها فكرت كثيرًا: أن تختفي أيسر عليها، لكن الضمير كان يطالبها بشيءٍ آخر. وأنها لو انسحبت، لبقيت كلماتها القديمة تمشي في الناس بلا تصحيح، وبقي من تأثر بها يظن أن الطريق هو الطريق.

هنا قال صاحب البث جملةً صارت كالقانون في المجلس: نحن لا نعاتب التائب على الماضي. الماضي بينه وبين ربّه. نحن نناقش من يصرّ على الخطأ ويدافع عنه ويزينه للناس. أما من قال: أخطأت... ورجعت... فحقه علينا أن نعينه على الثبات، لا أن نهدمه وهو يحاول أن يقف.

لكن المشهد لم يكن ملائكيًا، لأن المنصّات لا تُسلم قلبها بسهولة.

خرجت أصواتٌ تُكذّب وتشُكّك، لا لأنها سمعت حجتها ثم ردّت عليها، بل لأنها لم تحتمل النتيجة.

قال بعضهم: إنها تضحك عليكم. إنها تتلاعب. سترون.

وقال آخرون—من الذين يرفضون السنة—إنها إن رجعت فلتكن "خفيفة" بلا قيود، وأن لا تتبع الطريق الذي اختارته هي: القرآن والسنة الصحيحة.

وكان الرد من أهل السنة هادئًا، لكنه واضح: نحن لا نملك مفاتيح القلوب. نحن نحكم بالظاهر، ونكل السرائر إلى الله. من قال: آمنت... قلنا: نسأل الله

لك الثبات. ومن قال: لم أؤمن... لم نجبره على شيء. أما أن نُفتش عن باطن الإنسان، ونقسم على كذبه، فهذا ليس دينًا ولا عدلًا.

وحين بالغ أحدهم في التشكيك، قال له صاحب البث ما معناه: أتشقّ عن قلبها؟

ثم ذكّره بأن ديننا لا يُبنى على محاكمة النيات. وأنه حتى لو فرضنا—جدلًا— أن إنسانًا ادّعى ما ليس فيه، فلن ينقص ذلك من حقيقة الإيمان شيئًا، ولن يضر الحق في نفسه. الضرر الحقيقي هو أن يتحوّل المجلس إلى ساحة اتهام، لا إلى ساحة هداية.

والذي حدث بعد ذلك لم يكن صراخًا أكبر... بل صمتًا أكبر.

كان صمت الدنادنة صمتًا غريبًا؛ لا لأنهم اقتنعوا جميعًا، بل لأنهم لم يجدوا العبارة السهلة التي كانوا يرمون بها كل شيء.

الخبر ليس شبهةً تُردّ.

والنتيجة ليست مقطعًا ساخرًا يُضحك الناس.

اختفت أصواتٌ اعتادت الظهور كل ليلة. بعضهم غيّر حديثه إلى موضوعاتٍ عامة، كأنه لم يكن هنا يومًا. بعضهم أغلق التعليقات. وبعضهم

اكتفى بالمراقبة من بعيد، لا يهاجم ولا يدافع... فقط يتابع، كمن خاف أن يسمع السؤال في داخله إن تكلم.

وفي الظل، كان دُندُن حاضرًا... لكن بطريقةٍ لا تشبهه.

لم يكتب كثيرًا. لم يعلق بسخرية. لم يرمِ شبهةً ثم يهرب. كان يتنقل بين البثوث كمن يبحث عن علامة، عن ثغرة، عن تفسيرٍ يعيد الأمور إلى ما كانت عليه. لكنه لم يجد إلا هدوءًا يزداد. ونتيجةً لم يحسب حسابها: أن الباب الذي كان ينتظر أن يخرج منه "نفي الخالق" خرج منه "رجوع إلى الله".

ولأن دُندُن لم يكن من أهل البحث، بل من أهل الانتظار، فقد كان وقع الخبر عليه أثقل من غيره. فهنا لا يعود الإنسان قادرًا على استعمال أسلحته القديمة: لا الضحك يكفي، ولا السخرية تنفع، ولا الهروب يطيل العمر كثيرًا.

كان يتظاهر بالهدوء... لكن في داخله شيءٌ يتحرك. شيءٌ يطارده كلما سكت المجلس، وكلما ارتفعت كلمة "الثبات"، وكلما سمع أن التائب لا يُهان.

وفي ذلك الهدوء غير المعتاد، بدأ السؤال يعود إلى مكانه الطبيعي:

ليس على الشاشة... بل في القلب.
ومن هنا... يتهيأ الطريق لما بعده.
لأن بعض الصمت لا يكون نهاية كلام... بل بداية اعتراف.

الفصل الرابع والثلاثون

حين انفتح الباب... وبقي بعضهم خلف الصمت

لم يكن المجلس احتفالًا، ولم يكن مشهدًا مصنوعًا للكاميرا. كان شيئًا أقرب إلى الواقع حين يتعب الناس من الصراخ، ويجلسون أخيرًا ليستمعوا إلى كلمةٍ صادقة.

ظهرت المرأة بهدوءٍ لا يُشبه حدّتها القديمة. لم تأتِ لتنتصر على أحد، ولا لتُثبت لنفسها بطولةً متأخرة. جاءت لتقول—فقط—إن الطريق انتهى بها إلى الله. وإنها تخاف من ثباتها بقدر ما تخاف من ماضيها. وإنها تعرف أن بعض الكلمات التي قالتها في زمن الضجيج لا تُنسى بسهولة... لكنها رجعت، وتطلب من الله الرحمة، ثم تطلب من الناس أن يتركوها تُصلح ما تستطيع إصلاحه.

كان صاحب البث يستمع، ثم يوجّه الكلام كما تعوّد: بلا فضيحة، ولا شماتة، ولا نبرة قاضٍ. قال لها أمام الملأ ما يشبه القاعدة: نحن لا نعاتب

التائب على ماضٍ انتهى، ولا نفتّش عن سريرةٍ لا نملك مفاتيحها. نحن نفرح بالرجوع، ونسأل الله الثبات، ونناقش من يصرّ على الخطأ ويدافع عنه ويزينه للناس.

وفي تلك اللحظة، دخل عبد الرزّاق.

لم يدخل بصوتٍ مرتفع، ولا بعبارةٍ تُشعل الجدل. دخل كما يعرفه من يعرفه: بهدوءٍ يليق بالقرآن، وبنبرةٍ تشبه الطمأنينة أكثر مما تشبه النقاش. سلّم، ثم قال كلماتٍ قليلة، كأنها دعاءٌ أكثر منها خطابًا.

قرأ آيةً بصوتٍ مستقيم، ثم توقّف عند لفظٍ يحتاج ضبطًا خفيفًا، لا ليحرج أحدًا، بل ليعيد للكلام حقه. كانت رسالته بسيطة: إذا عدنا إلى الله، فلنعد إليه بأدب. وإذا ذكرنا القرآن، فلنذكره كما يُذكر: بصدقٍ وخشوعٍ وحرصٍ على المعنى.

ثم رفع الدعاء، فصار المجلس كله أقرب إلى بيتٍ يجتمع فيه الناس على خير: دعا لها بالثبات. دعا لنفسه ولغيره بالمغفرة. ثم قال دعاءً سمعه الجميع كأنه موجّه إلى جهةٍ أخرى لا تظهر في الشاشة:

اللهم اهدِ الدنادين... واهدِ دُندُن... وردّهم ردًّا جميلًا.

لم يكن في الدعاء شماتة، ولا استعلاء. كان فيه معنى واحد: أن الطريق مفتوحٌ لمن أراد الصدق.

وفي أثناء ذلك، كان دُندُن حاضرًا... لكن حضوره لم يكن كما كان.

لم يطلب الكلمة، ولم يرمِ شبهة، ولم يكتب سخريةً في التعليق. كان يراقب من بعيد، كمن يخشى أن يتحول كل حرفٍ منه إلى سؤالٍ عليه. كأن شيئًا داخله يقول: انتبه... الكلمات هنا لها وزن، وليست مثل الأمس.

لاحظ صاحب البث ذلك الصمت الغريب. نظر إلى التعليقات، ثم قال وهو يخاطب الجهة الأخرى دون استفزازٍ ولا انتقام:

أين الدنادين؟ ... لم نعتد منكم هذا الصمت.

قولوا كلمة... ولو كلمة.

هذه أختكم أمامكم... هل تدعون لها بالثبات؟ أم تدعون لها أن ترجع إلى الدندنة؟ ما رأيكم؟

ثم سكت قليلًا، كأنه يفسح لهم المجال كما كان يفعل دائمًا. لم يأتِ ردّ.

لا تعليق يهاجم، ولا تعليق يهنّئ، ولا حتى كلمةً باردة تُنهي الموقف. كان الصمت هذه المرّة موقفًا كاملًا، لا غياب شبكةٍ ولا انقطاع صوت. وكأنهم اتفقوا—في ما بينهم—على شيءٍ واحد: ألا يجيبوا.

بل إن بعضهم—كما لاحظ الناس—صار إذا حاول واحدٌ منهم أن يذكرها، أوقفه الآخر بسرعة: لا تذكرها. لا تتكلم عنها. هذا شأنها. لا تفتحوا بابًا يُستدرج به أحد.

لم يقولوا ذلك رحمةً بها، ولا احترامًا لاختيارها؛ بل هربًا من الكلمة التي ستفضحهم: إن مدحوها خسروا خطابهم القديم، وإن طعنوا فيها ظهر قسوتهم أمام الناس. فاختاروا أسهل طريق: صمتٌ متفق عليه... صمتٌ يجمّد الحقيقة بدل أن يواجهها.

أما المؤمنون، فكانوا على خلاف ذلك تمامًا.

لم يفتحوا لها "أبواب المنصّة" فقط، بل فتحوا لها القلوب. لم يطلبوا منها أن تشرح كل شيء، ولا أن تحكي ماضيها بالتفصيل. قالوا لها كلماتٍ بسيطة، لكنها ثقيلة في معناها: مرحبًا بك عند فطرتك.

نسأل الله لك الثبات.

لا تخافي... نحن نفرح برجوعك.

وكان في هذا الترحيب معنى أعمق من المجاملة: أن الرحمة ليست شعارًا يُرفع، بل سلوكٌ يظهر حين يعود المخطئ ويقول: أخطأت.

وفي ذلك المجلس، كان الفرق واضحًا كأنه مكتوب على الهواء:

قومٌ يفرحون بالتوبة ويعينون عليها... وقومٌ يخافون من كلمةٍ واحدة لأن الكلمة ستجبرهم على مواجهة أنفسهم.

أما دُندُن، فظل يراقب.

لم يكن قادرًا على العودة إلى ضجيجه القديم، ولا قادرًا على الدخول في هذا النور الجديد. كان واقفًا في منطقةٍ بينهما، يسمع الدعاء باسمه، ويقرأ الصمت في قومه، ويرى الأبواب تُفتح لمن رجعت... دون أن يملك الشجاعة ليعرف: هل يستطيع أن يرجع مثلها؟

ومن هنا... صار الطريق إلى الخاتمة أقرب.

لأن بعض الصمت لا يكون سكوتًا عن الكلام... بل اعترافًا بأن شيئًا تغيّر، وأن الدندنة لم تعد وحدها في المشهد.

الفصل الخامس والثلاثون

حين لم تكن شبهة... وكان الصمت أبلغ



بعد ذلك المجلس، لم يعد المشهد كما كان.

لم يكن الأمر انتصار طرفٍ على طرف، بل انكشاف طريقٍ كامل: طريقٌ يعيش بالضجيج... فإذا واجهته لحظةُ صدقٍ صمت. أسماءٌ كانت تملأ الشاشات اختفت، وأخرى بدّلت حديثها، وثالثة هربت إلى قضايا لا تمسّ السؤال الأول. وبعضهم لم يجد جوابًا... فاشتغل بالتشويش على الأشخاص بدل مناقشة الفكرة.

أما المؤمنون، فكانوا في الجهة الأخرى يثبتون معنى واحدًا: أن الباب يُفتح للتائب، وأن السرائر ليست ملعباً للبشر، وأن الصدق—مهما تأخر—يستحق أن يُستقبل بالدعاء لا بالمحاكمة.

وفي وسط هذا كله، كان دُندُن يراقب.

لم يعد يملك ضجيجه القديم، ولم يجد في الضجيج الجديد ما يريحه. كأن شيئًا في داخله بدأ يضعف... لا لأن الشبهات انتهت، بل لأن الفطرة لم تنتهِ.

وفي ليلةٍ بدت عادية... رنّ هاتف صاحب البث.

ظهر اسم دُندُن على الشاشة. لم يكن اتصالًا منتظرًا في تلك الساعة. أجاب:

— السلام عليكم يا دُندُن... أهلًا وسهلًا. ألم تنم بعد؟

– لا... وأنت يا صديقي؟

– كنتُ على وشك أن أنام. ما الذي جعلك تتصل يا دُنْدُن؟

سكت دُنْدُن قليلًا، كأنه يبحث عن بدايةٍ لا تُحرجه.

– هل من شبهةٍ جديدة؟

– لا...

– متأكد؟

– والله... لا.

مرّ صمتٌ خفيف، كأن الليل يستمع.

– إذن أبشرنا يا دُنْدُن... ما الخبر؟

خرج صوته أهدأ مما اعتاده الناس منه:

– الخبر... لعله شيءٌ ظلّ يدور في رأسي. ظللت أفكر طويلًا: أتصل... أم لا أتصل. ثم قلت: سأفعل. لأنك—رغم كل الاختلافات—إنسانٌ صادق. إنسانٌ يعيش بوجهٍ واحد.

قال صاحب البث:

– أهلًا بك يا دُندُن. كل نقاشٍ كان لأجلك، ولأجل من يسمع... ابتغاء وجه الله تعالى.

– لهذا... اتصلت.

– تفضل يا دُندُن... ماذا تريد أن تقول؟

سكت دُندُن ثواني. سكت أكثر مما ينبغي، حتى خُيّل أن الخط انقطع.

– هل أنت معي يا دُندُن؟

جاء صوته من الداخل، كأنه لا يخرج من الحنجرة بل من مكانٍ أعمق:

– نعم... نعم، أنا معك. لكن... صدّقني... سنتركها إلى الفرصة القادمة.

ثم انتهت المكالمة.

لم يُقَل شيءٌ آخر... لكن شيئًا تغيّر.

لم تكن المكالمة إعلان توبة، ولا وعدَ عودة، ولا جملةً تُغلق الحكاية. كانت علامةً صغيرة من تلك العلامات التي لا ينتبه لها الضجيج... وتفهمها القلوب. أن يتصل دُندُن في ساعةٍ متأخرة، ثم يضع "الخبر" على حافة الكلام، ثم يؤجله—فهذا وحده كان كافيًا ليُظهر أن المسافة بين الإنسان وبين نفسه ليست دائمًا مسافة أفكار، بل مسافة شجاعة.

الفطرة لا تأتي غالبًا بصوتٍ مرتفع.
هي لا تُحسن الصراخ، ولا تجيد الاستعراض.
تأتي كنداءٍ خفيف... يمرّ في الداخل، ثم يعود.
وكلما طارد الإنسان الشبهات ليهرب من هذا النداء، وجد النداء يطارده من جهةٍ أخرى: من تعبٍ لا تفسير له، من خجلٍ لا يُقال، من سؤالٍ يرفض أن يموت.
وهنا يظهر معنى التكليف: أن الإنسان ليس مجبرًا على الطريق، لكنه مسؤولٌ عنه. يُفتح له باب المعرفة، ويُترك له الاختيار، ثم يُسأل عمّا صنعه بيده. ولهذا لم نزعم أن دُندُن رجع، ولم نقل إنه تاب. لأن الصدق مع القارئ جزءٌ من الصدق مع الفكرة.
لكننا قلنا شيئًا واحدًا: إن الفطرة اتصلت.
اتصلت به في صورة سؤالٍ لا يُقال، وفي صورة صمتٍ أطول من عادته، وفي صورة مكالمةٍ خرجت من الليل كأنها اعترافٌ لم يكتمل. وكأن الدندنة—لأول مرة—وقفت أمام نفسها بلا ضجيجٍ يكفيها.
أيها القارئ...

إن وصلت هذه الصفحات إلى إنسانٍ يُشبه دُندُن، أو يحمل شيئًا من دندنته، فليعلم أن الطريق لا يُقفل. وأن الغربة التي يصنعها المرء حول نفسه ليست قدرًا أبديًا. وأن من يسبّ ويشتم ليس دائمًا قويًا... قد يكون متعبًا، يصرخ لأنه لا يريد أن يعترف بأنه ضائع.

وربما—في يومٍ ما—يسأل نفسه السؤال الذي بدأ منه كل شيء:

لماذا أصبحت غريبًا بين الناس؟... لماذا كنت أؤذي بالكلمة؟

وماذا لو كانت أخطائي تحتاج اعترافًا لا شعارًا؟

ثم يبقى النص الأكبر الذي لا يُغلقه أحد، ولا يبدله أحد:

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

ثم السؤال الذي يضع القلب أمام مسؤوليته بلا ضجيج:

﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾

أيها القارئ... نسأل الله لنا ولـ«دُندُن»—ولكل من تاه بين الضجيج والمعنى—أن يردّنا إلى الحق ردًّا جميلًا.

تمّ الكتاب.

على عتبة الختام

ما كتبتُ هذه الصفحات من خيالٍ بعيد، ولا من عزلةٍ عن الواقع؛ بل عشتُ النقاشات، وسمعتُ الاعتراضات، ورأيتُ بأمّ عيني كيف يولد السؤال، وكيف يكبر الضجيج حين يغيب الفهم. كنتُ حاضرًا في ساحة الحوار، أتابع حدّته أحيانًا، وأشهد صدقه أحيانًا أخرى، ومن تلك المساحة الواقعية خرج هذا الكتاب.

فإن وجدتم فيه كلمةَ حقٍّ أو بيانًا أصاب موضعه، فالفضل لله وحده، فهو مصدر الحقّ والتوفيق. وإن صادفتم نقصًا، أو زلّة عبارة، أو قصور تقدير، فذلك مني ومن بشريتي؛ فما أنا إلا أخٌ لكم اجتهد، والاجتهاد طريقٌ بين إصابةٍ وخطأ.

ما أردتُ إلا أن يبقى للحوار خُلُق، وللسؤال كرامة، وللقلب فرصةٌ ليهدأ بعد ضجيجٍ طال.

الفهرس